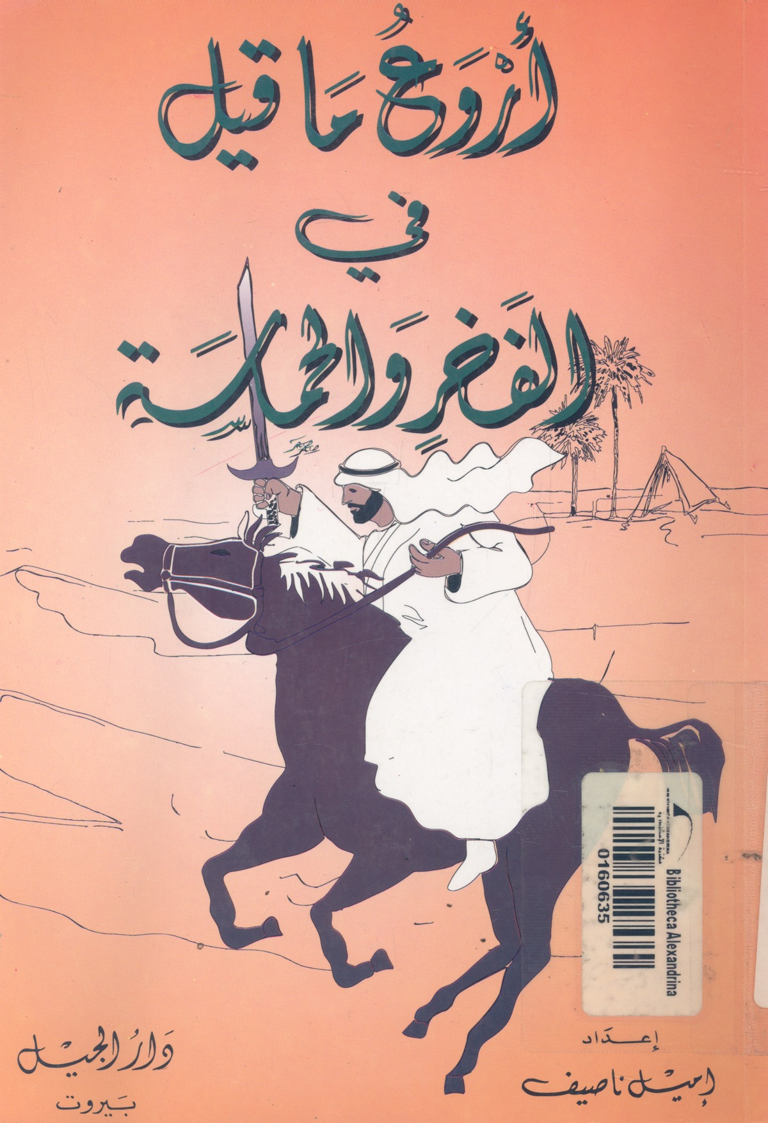

أروع ما قيل
في
الفخر والحماسة
إعداد
إميل ناصيف
دار الجيل
بيروت
Bibliotheca Alexandrina
0160635

أروع ما قيل
في
الفخر والحماسة

أروع ما قيل في الفخر والحماسة

إعداد

إميل ناصيف

دار الجيل
بيروت
DL

الطبعة الأولى

تمهيد: التعريف بالفخر والحماسة

١ ـ الفخر:

منذ وجد الإنسان نظر إلى ذاته مستجلياً محاسنها، ممعناً النظر في قبائحها، مقارناً فيما بينها وبين غيرها. فإذا كان هذا الإنسان شاعراً فإنّه يجسّد هذه النظرة في عبارات شعريّة، فيكون لنا باب من أبواب الأدب هو باب الفخر والحماسة.

ـ والفخر، من هذا المنطلق، باب واسع من أبواب الشعر العربيّ يعبّر عن ميل العرب الفطريّ إلى الأنفة والكرامة كما يعبّر عن ميلهم الى السعي نحو الآمال البعيدة والذّرى الشّامخة. والذات الفرديّة العربيّة هي امتداد للذّات الجماعيّة في تطوّرها خلال الزمن، يفسّر ذلك ميل العربي الى التمسّك بأصله ونسبه والانتماء الى قبيلة أو مذهب أو حزب، والدّفاع عن هذه الانتماءات بالقول والفعل والممارسة والتضحية وخوض البطولات وبذل الكرامات وما الى ذلك من المواقف. ولا يقتصر الفخر على الذات الفرديّة بل يتعدّاها الى الفخر الحزبي أو الانتماء السياسي أو القبلي أو الديني أو غيره. فالفخر الذاتي هو ما دار حول عقل الشاعر وقلبه ولسانه وساعديه وحول آبائه وأجداده. أمّا الفخر الحزبي فهو لسان الحزب ينطق بمبادئه وينشر تعاليمه، وقد انتشر هذا الفخر منذ فجر الاسلام وعرف أوج عزّه في العصر الأموي بسبب انتشار الأحزاب المتناحرة من حزب السلطة الحاكمة إلى

الشيعة والخوارج والزبيريين. أمّا الفخر الدينيّ فقد ظهر مع انتشار الإسلام وبدء الفتوحات. فقد وجد العربي نفسه في خضم القتال الذي فرضته هذه الفتوحات، وأصبح القتال جـزءاً مـن حياته اليوميّة. ولم يكن العربي ليأنف من هذا الواقع الجديد فقد ألفه منذ الجاهلية: أليس التاريخ العربي قبل الاسلام حافلًا بالحروب والثورات؟ فمن حرب البسوس بين تغلب وبكر الى حروب بين قحطان وعدنان، الى حرب داحس والغبراء الى حرب الأوس والخزرج... ثم جاءت حروب الفتوح التي تعددت ميادينها من الصين والهند شرقاً الى قلب أوروبا غربًا والى أفريقيا جنوبًا وآسيا الصغرى شمالًا، فتدفّقت فيها دماء البطولة والشهادة كما تدفّقت الأشعار الزاخرة بالعزّة، فسالت قصائد خالدة في الفخر والحماسة، وانطلق فيها خيال الشعراء من قيود الواقع محلّقًا في سماء المغالاة، مضخّمًا الوقائع، فإذا شعرهم صدى لقعقعة السّلاح وصهيل الخيل وقرقعة طبول الحرب.

وقد كان للعرب في أخلاقهم وعاداتهم معين لا ينضب من المثل العليا، ومجال واسع في التباهي والتعالي على غيرهم من الشعوب من جهة وعلى بعضهم البعض من جهة ثانية. فقد فاخروا بشجاعتهم، وكرمهم، وإبائهم، ووفائهم، ومروءتهم. فلقد عاشوا في بيئة صحراويّة قليلة المياه مترامية الأطراف، وكانوا في غالبيتهم يسكنون الخيام ويعيشون من لحوم مواشيهم وألبانها، لا يردّ عنهم الأخطار إلا سواعدهم القويّة وتضامنهم بوجه عدوّهم المشترك المتجسّد في الطبيعة القاسية حينًا وفي القبائل المجاورة حينًا آخر. فكانت لهم عادات في الكرم والضيافة يفخرون بها ويتغنّون بالبذل في سبيل ضيفهم، ويؤمنون بأنّ الضيافة ثلاثة أيّام متتالية، ويعتبرون أن ضيفهم أحقّ من الأهل والأولاد في زادهم، فيوقدون له نار القرى ليلًا على رؤوس التّلال، ويعوّدون كلابهم أن تهرّ ليلًا ليهتدي الضيوف إلى منازلهم.

والحياة في البادية حياة فطرة وصفاء وإباء وشرف، فالبدويّ يتغنّى بترفّعه عن العار وبعده عن الفحشاء، وبتواضعه، وحيائه، وعفوه عند المقدرة، كما يتغنّى

بشجاعته وصلابته في طلب الثأر. ولمّا كانت حياة البدويّ لا تعرف الاستقرار، بل كانت سلسلة من التنقّل والارتحال، كان الوعد الصّادق سنّة المجتمع، وكان الوفاء من أقدس القدسيّات والغدر من أقبح الأمور وأحقرها، لذلك كان الوفاء بابًا واسعًا من أبواب الفخر لديهم. والبدويّ فارس بالفطرة، فهو دائم الترحال، لا يعرف الاستقرار، لذلك نراه يندفع في حماية البائسين، ونجدة الملهوفين وإغاثة المحرومين؛ وقد كثرت أشعارهم في حفظ الجوار، وحفظ الأمانة والعهود، وفك الأسرى، والدّفاع عن الملهوف.

وقد ظلّ العرب يفخرون بأخلاقهم ومثلهم حتى جاء الإسلام فجمع كلمتهم تحت رايته الموحّدة، وتناول أخلاقهم وعاداتهم، فهذّبها ووجّهها طريق الاستقامة والفضيلة والخير، فأبقى على قسم كبير من تلك الأخلاق، إذ ألغى العصبيّة القبليّة وأحلّ مكانها الرابطة الدينية. وراح الشعراء يفاخرون بما فاخر به شعراء الجاهلية ويزيدون ما أوحى به الدين الجديد والبيئة الجديدة. ولمّا أطلّ العصر الأموي عادت العصبيّة القبليّة إلى الظهور بفضل سياسة خلفاء بني أميّة وعادت المفاخرات إلى ما كانت عليه في الجاهلية. ثم ما لبث العهد العبّاسي أن أطلّ، فنقلت ثقافة الشعوب الأخرى إلى اللغة العربيّة فزاد الشعراء على مفاخرهم ما أوحت به البيئة الجديدة من التغنّي بالعقل والحكمة والعدالة والذوق والحلم، وظلّت حركة الشعر على حالها حتى منتصف عهد النهضة حيث تقلّص ظلّ الفخر شيئًا فشيئًا بازدياد الوعي الاجتماعي وتطوّر النهضة.

٢ ـ الحماسة:

إذا تعدّى الشّاعر ذاته الفرديّة، وبلغ الذات الجماعيّة التي تمثّلها القبيلة، أو العشيرة، أو الحزب، أو الطّائفة، أو الدّين، فإنّه ينتقل من الفخر بمعناه الضيّق إلى الحماسة بمعناها الشّامل. فقد عرفنا الشعر الحماسيّ في الجاهليّة، لدى وصف المعارك والحروب، ووصف الخيول وأدوات الحرب. فإذا انتهكت الأعراض، أو

ديست الحرمات، أو اغتصبت المراعي، هبّت القبائل غاضبة، والرجال على سلاحهم، والنّساء في زغردة، والخيول في صهيل، وإذا الرّماح في الصدور، والسّيوف في الأعناق، والدّماء تصبغ الرّمال. ومع ظهور الإسلام، انتظم العرب تحت لواء واحد، فكانت الخطوة الأولى على طريق التوحيد، حروب الرّسول (ﷺ). ثم جاءت الفتوحات الإسلامية فكانت الخطوات اللاحقة التي دعّمت ركائز تلك الوحدة، وكان ميدان القتال واسعًا يمتدّ من شبه الجزيرة العربيّة إلى مصر فالعراق فالشّام فبلاد فارس، وكان الشّعر يغطّي جبهات القتال كافّة، وهو لا يختلف في شيء عن شعر الحماسة في الجاهليّة إلّا بما يزخر به من المعاني الدينيّة الجديدة، والصبغة الأخلاقيّة، والنفحة القوميّة. والشعر الحماسي نشأ عند جميع الشعوب نشأة بدائية، ثم راح مع الأيّام يعبّر عن ذاته في قصص مليئة بالحياة والألوان حتى كانت الملحمة.

وكان لأكثر أمم الأرض ملاحمها الشّعريّة المطوّلة حيث سطّرت فيها أمجادها ودوّنت بطولاتها، فكانت إرث الآباء إلى الأبناء. فلليونان إلياذة هوميروس وأوذيسّته وقد دوّنت فيها حروب الطرواديّين، وللرّومان إنياذة فرجيليوس وفيها مغامرات البطل إيناس وحفيديه روموس ورومولوس، وللهنود ملحمة الرامايانا وفيها الشيء الكثير من بطولات أبناء الهند القدامى، ولهم أيضًا ملحمة المهابهارتا. وللفرس أيضًا شاهنامتهم وفيها سجل ملوكهم الأكاسرة وأبطالهم، كما للفرنسيّين ملحمة رولان التي دوّنت مجد فرنسا في الأعصر القديمة، كما أنّ لكلّ أمّة ملحمة تخلّد مآثرها وتدوّن أمجادها. وإذا كان العرب قد فاتهم أن ينشئوا ملحمة، في عمل فنّي قصصيّ موحّد، شبيهة بما كان لغيرهم من الأمم، فذلك يعود إلى كون حياتهم بعيدة عن الاستقرار، بحيث أنّهم كانوا يرتحلون طلبًا للماء والكلأ، مرات متعددة وفقًا لتقلّبات الطقس خلال السنة الواحدة. إضافة إلى ذلك، كان البدوي قليل الصّبر، شديد الانفعال، قصير النَفَس، بعيدًا عن التحليل والرواية، ضيّق الأفق والخيال، لا يخرج في شعره عن حيّز ذاته ومنفعته الآنيّة،

بل يستخدم هذا الشعر في تأمين عيشه، أو في تدوين انفعالاته في كلّ مناسبة تطرأ. وهذا النّمط من الشّعر لا يتّفق مع شعر الملاحم الذي يقتضي أن يظلّ صاحبه بعيدًا عن مسرح الأحداث، قابعًا وراء السّتار يعمل بصمت وأناة يدوّن الوقائع بدقّة وتنظيم، ليطلع على النّاس بعمل فنّيّ عظيم، يدفعه إلى ذلك شعور وطنيّ صادق، وبُعد عن المنفعة الماديّة المباشرة.

وإذا كان الأدب العربيّ قد خلا من الملحمة كما رأيناها عند الأمم الأخرى، فإن شعر العرب في الحماسة يشكّل ملحمة مقطّعة الأوصال قد اشترك في وضعها شعراء لا يحصى عددهم. فلو أتيح لشاعر كبير، أن يجمع شتات الشعر الحماسي عند شعراء الجاهلية، وأخبار حروبهم وأيّامهم، لكان له من قصائد عنترة وأخباره، ومن شعر المعلقات، ومن سائر ما نظم الشعراء الجاهليّون، ومن أخبار جسّاس بن مرّة، وكليب بن ربيعة، وغيرهم ملحمة متكاملة الأجزاء، تكوّن ملحمة عربيّة جاهليّة، تمثّل فروسية الجاهليّة، وتذكر حروبها وأيّامها، وتؤرخ لشعب كان القتال خبزه اليوميّ. كذلك لو نظَرنا إلى تاريخ العرب منذ فجر الاسلام، مرورًا بالفتوحات، ووصولًا إلى حرب العرب والرّوم في العهود العبّاسيّة، لكان لنا من شعر أبي تمام، والبحتري، والمتنبّي وغيرهم، ما يشكّل أروع الملاحم.

القسم الأول

الفخر والحماسة في الشعر الجاهليّ

١ ـ الفخر

نشأ الفخر، في بادئ الأمر، لدى شعراء الجاهلية، تلقائيًا، وقد ساعد على تلك النشأة ما كان هناك من أسواق تفتح المجال واسعًا أمام الشعراء للتّنافس والتّفاخر، ولا سيما إذا حصل نزاع بين سيّدين، أو ذكرت محاسن أو فضائل القبائل. وكانت تقام أسواق شعريّة موسميّة، لمناشدة الأشعار وتبادل الأخبار كسوق عكاظ وغيره، إضافةً إلى نوادٍ أو حلقات تعقد في غير مناسبة. فشعر الصعاليك يعبّر عن النفس العربية الأصيلة تعبيرًا صادقًا، بعيدًا عن الكذب والخداع، كما يعبّر أصدق تعبير عن حياة البداوة في قساوتها وشظف عيشها وفي مادّيّتها وسذاجتها. فإذا بالشاعر تأبّط شرًّا هو النموذج الصّادق عن رجل البادية الواثق من نفسه، المتكل على ذاته، الفقير المشرّد، الكريم الجواد، الذي يؤثر أضيافه على نفسه، خاصة في زمن الشّتاء البارد، والذي يدفع عن جاره الأذى، ويأبى عليه إلّا أن يكون منيعًا، أمينًا، عزيز الجانب، قرير العين. كذلك يظهر في شعره نموذجاً للبدويّ الثائر على الظلم، الحريص على الشرف والكرامة، الذي يعتبر الثأر شريعة مقدّسة وواجبًا.

والشنفرى، أيضًا، ابن البادية، وابن الفطرة، الذي يتحدّى مشقّات الصحراء، ويأنف المذلّة والاستسلام، ويتنكّر لأهله إذا أخلّوا بالقيم البدويّة، فإذا به كغيره من الشعراء الصعاليك، يهيم على وجهه في القفار، يؤثر الحياة مع وحوش الفلاة

لأنّها أحفظ للسرّ، وأوفى، وأحرص على الجار. إنّ موضوع فخره يتحوّل إلى إيثار الفقر على الغنى، وحياة الشظف على حياة النعيم، فإذا الحياة الحقيقيّة هي التنكّر لحياة الذلّ التي لا تؤمّن لصاحبها الحرّيّة التي يعتبرها الصعاليك من أولى المقدّسات.

أَقيموا بني أُمّي صدورَ مَطيِّكُمْ فإنّي إلى قومٍ سواكُمْ لأَمْيَلُ
وفي الأرضِ منأىً للكريمِ عن الأذى وفيها، لِمَنْ خافَ القِلَى، مُتَعَزَّلُ
ثلاثَةُ أصحابٍ: فؤادٌ مُشَيَّعٌ وأبيضُ إصْليتٌ وصفراءُ عَيْطَلُ

وعروة بن الورد هو الجواد الكريم الذي يهب دون منّة، وهو الرجل السّاذج الذي ينظر إلى الغير نظرته إلى نفسه، ويحنّ على البائس المسكين كما يحنّ على ذوي القربى، وممّا قاله:

دعيني أطوّف في البلاد لعلّني أُفيدُ غِنىً فيه لذي الحقِّ مَحْمِلُ
فإنْ نحنُ لم نملكْ دفاعًا بحادثٍ تُلِمُّ به الأيّامُ فالموتُ أَجْمَلُ

إلى جانب هؤلاء الشعراء الصعاليك، هناك فئة من شعراء الجاهلية الفرسان جسّدوا الفخر في شعرهم أصدق تجسيد نذكر منهم عنترة بن شدّاد وحاتم الطائي. فحاتم سيّد من سادات قومه، وشاعر شهير، وهو مضرب مثل في الكرم والجود، ونبل الأخلاق. قال ابن الأعرابيّ عنه: «كان من شعراء العرب، وكان جوادًا يشبه شعره جوده، ويصدق قوله فعله، وكان حيثما نزل عرف منزله، وكان مظفّرًا، إذا قاتل غلب، وإذا غنم أنهب، وإذا سئل وهب، وإذا ضرب بالقداح فاز، وإذا سابق سبق، وإذا أسر أطلق، وكان إذا أهلّ الشهر الأصمّ، الذي كانت مصر تعظّمه في الجاهلية، ينحر كلّ يوم عشرة من الإبل، فأطعم النّاس واجتمعوا إليه».

يقول في أحد أشعاره:

كـريـمٌ لا أبيـتُ الليـلَ جـادٍ ... أعـدّدُ بـالأنـامـلِ مـا رُزِيـتُ

إذا مـا بِـتُّ أشـربُ فـوقَ رِيٍّ ... لِسُكْـرٍ فـي الشّـراب فلا رويـتُ

إذا مـا بِـتُّ أَخْتِـلُ عِـرْسَ جـاري ... ليخفينـي الظلامُ فلا خَفيـتُ

إنّه أبيّ النفس لا يخون جاره، ولا يعبد الدينار، ويرى أنّ الحياة سخاء وبذل في سبيل الثناء والمجد، فعلى الإنسان أن يكسب رزقه بالحلال، وأن يكون عفيف الجانب. وهو كريم يوقد النّار ليلًا في مكان مرتفع، لينظر إليها الضّالون، فيهتدوا إلى مكانه، ويعوّد كلابه على النباح، ليُسمع نباحها من بعيد:

إذا ما بخيـلُ النّـاسِ هـرّت كلابُـهُ ... وَشَقَّ على الضّيفِ الضّعيفِ عقـورهـا

فـإنّـي جبـانُ الكلـبِ بيتـي مُـوَطّـأٌ ... أجُودُ، إذا ما النّفسُ شحَّ ضَميـرُهـا

هكذا كان حاتم الطّائي رجلًا فوق الرّجال، وعلمًا من أعلام المروءة العربيّة.

أمّا عنترة بن شدّاد فإنّه يجسّد معنى الرجولة العربيّة الكاملة، دون أن تنتهي هذه الرجولة الى ضعف، كما يمثّل الشدّة البعيدة عن العنف، ويمثّل شارب الخمر الذي يظلّ بعيدًا عن السكر، والشجاع الذي يظلّ بعيدًا عن التهوّر، أو المشاركة في اقتسام غنائم الحرب. يقول عن نفسه مخاطبًا عبلة:

فـإذا شَرِبـتُ فـإنّنـي مُسْتهلِـكٌ ... مالـي، وعِـرضِـي وافرٌ لـم يُكْلَـمِ

وإذا صحوتُ فما أقَصِّرُ عـن نـدىً ... وكمـا علمـتِ شمـائلي وتكـرّمـي

يخبـرْك مـن شهـدَ الوقيعـة أنّنـي ... أغشـى الوغـى وأعِـفُّ عنـد المَغْنـمِ

فهو رجل عفاف وحياء، وفخره صورة صادقة لنفسه الشريفة التي تأبى الذّلّ، وتسمو الى العلاء، والتي تؤثر الجوع على الطعام الذليل، ولا تخون الجار في ماله

أو عرضه. أليس هو القائل:

لا تسقنـي مـاءَ الحيـاةِ بِـذِلَّـةٍ بَلْ فاسقني بـالعـزّ كـأسَ الحنظَـلِ
مـاءُ الحيـاةِ بِـذِلَّـةٍ كجهنّـمٍ وجهنّـمٌ بـالعـزّ أطيـبُ منـزلِ

إلى جانب هذا اللون من الفخر في الشعر الجاهلي نشأ لون آخر يتغنّى أصحابه بالمثل الأخلاقية الجاهليّة بعيدًا عن المغالاة أو المبالغة أو التضخيم، وكان في طليعة من يمثل هذا اللون من الفخر، السموأل اليهوديّ وطرفه بن العبد. فالسموأل صاحب حصن معروف «بالأبلق الفرد»، وبه يضرب المثل في الوفاء، كما يضرب المثل في الكرم بحاتم الطّائي. ويروى أنّ السموأل أسلم ابنه، ولم يُسلم أدرع الشّاعر امرئ القيس بن حجر التي أودعها لديه عندما سار إلى القسطنطينيّة يطلب معونة القيصر ليأخذ بثأر أبيه الملك حجر الكنديّ. فالسموأل عزيز النّفس، كريم الأصل، يصون عرضه، ويكرم ضيفه، وشعره يجسّد المبادئ التي يؤمن بها خير تجسيد.

يقول في لاميّته:

إذا المرءُ لم يَدْنَسْ من اللؤمِ عِرْضُهُ فَكُـلُّ رداءٍ يـرتـديـهِ جميـلُ
تعيّـرُنـا أنّـا قليـلٌ عـديـدُنـا فقلـتُ لَهـا إنّ الكـرامَ قليـلُ
ومـا ضـرّنـا أنّـا قليـلٌ وجـارُنـا عـزيـزٌ، وجـارُ الأكثريـنَ ذليـلُ
وما أُخمِـدتْ نـارٌ لنـا دونَ طـارقٍ ولا ذَمَّنـا فـي النـازليـنَ نـزيـلُ

والقصيدة تعتبر شرعة الأخلاق العربيّة النبيلة، والعودة إليها تُغني عن الكثير من الكلامِ على أبواب الفخر في ذلك العصر. وهي تمثّل صاحبها من جهة وتمثل قيم عصرها بكل دقّة وأمانة.

أمّا طرفة بن العبد، فإنّ الفخر عنده هو عنوان التحرّر من قيود الواقع، ذلك

الواقع الذي اصطدم به، فطُرد من عشيرته، وأُبعد كما يُبعد « البعير المعبّد ». فإذا به ينكفئ على ذاته محلّلًا الحياة، ومحاولًا إعادة فهمها وصياغتها من جديد. وإذا بنا أمام رجل عنفوان، وجرأة وصراحة، يصف لنا مشاعره بصدق بعيدًا عن الخداع والالتواء، وإذ به رجل صبور في الملمّات، قويّ على حوادث الأيّام وظلم الأقارب، ينفق ماله بغير حساب، ودون اقتصاد، يبحث عن اللّذة في كلّ مكان، لأنّ الحياة قصيرة لا تستحقّ أنْ يبادرها المرء إلاّ بما استطاعت يداه من وسائل:

أُسْدُ غـابٍ، فـإذا مـا فَـزِعُـوا غيـرُ أنكـاسٍ ولا هـوجٍ، هُـذُرْ
وهُـمُ، مـا هـمْ، إذا مـا لبِسُـوا نَسْـجَ داودَ لِبَـأسٍ مُحْتَضِـرْ
ورثـوا السُّـؤدُدَ عـن آبـائهـمْ ثـم سـادوا سـؤددًا غيـرَ زَمِـرْ

وينطلق طرفة واثقًا من نفسه، لا يحسب للحياة حسابًا، يتمسّك بعقيدته في الحياة، بكل حزم وصرامة، فيصوغ مبادئه بجرأة، مستوحيًا آراءه من حياة البادية التي تعتمد على أخلاقيّة مثاليّة تقوم على تقديس المروءة والشجاعة والتضحية والكرم وتعتبر الحياة ميدان صراع لا مكان فيه لغير القويّ.

٢ ـ الحماسة:

عاش البدويّ في بيئة صحراوية قلّت فيها مياه الأمطار، ينتقل من مكان إلى آخر طلبًا للماء والكلأ، فإذا زاحمه غريب على الماء والمرعى وقع الصدام، فسالت الدّماء، وهبّ القوم إلى الأخذ بالثأر، فتنادت القبائل إلى الحروب وتداعت إلى عقد الأحلاف، وتعانقت السّيوف، وسالت دماء الأبطال، وانطلقت ألسنة الشعراء مدّوية.

أمّا دواعي الشعر الحماسي فكثيرة، فالبدويّ شديد الحفاظ على الشرف والجار والنّساء، فإن تعدّى عليها أحد، أوقد في سبيلها نيران الحرب وأذكى قرائح

الشعراء، ففاض الشعر هدّارًا وبأسلوب ملحمي، فكانت كلّ حرب سببًا من أسباب انطلاق شعر الحماسة الذي رافق العرب في جميع أطوار تاريخهم. فكانت أيّام العرب في الجاهلية وحروبهم محور هذا الشّعر، ومدار أقوالهم. فأيّامهم كثيرة ترجع إلى صراعهم فيما بينهم، أيام قحطان وعدنان، وإلى أيّام ربيعة فيما بينها، وأيّام ربيعة وتميم، وأيّام قيس فيما بينها، وأيّام قيس وكنانة، وأيّام قيس وتميم، وأيّام ضبّة وغيرهم. كما أنّ للعرب أيامًا مع غيرهم من الشعوب، خاصة مع جيرانهم الفرس والأعاجم، أشهرها يوم ذي قار وهو لبكر على العجم، حيث التقى جيش الأكاسرة بجيش العرب في بطحاء ذي قار، وهو ماء لبني بكر قرب الكوفة، وقد دارت الدائرة على الفرس في تلك الموقعة. وقد نظمت الأشعار الكثيرة في تلك المواقع، وفيها تصوير للقتال، وعمليّات الكرّ والفرّ التي رافقته، وفيها أيضًا تصوير للبطولات التي سجّلها المقاتلون، شبيهة بمقاطع الإلياذة.

أمّا حروب القحطانيّة فيما بينها، فهي كثيرة، نذكر منها يوم حليمة، حيث انتصر ملك الشّام الحارث الأعرج على المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة. وحروب القحطانية مع العدنانيَّة قديمة نذكر منها حرب بني أسد على الملك حجر الكندي، والد الشّاعر امرئ القيس، والقضاء على مملكته كندة. أمّا حروب بني ربيعة فيما بينهم، فنذكر منها حرب البسوس التي دامت أربعين سنة وكانت بين بكر وتغلب ابني وائل، والتي قال عنها سليمان البستاني في مقدمة الإلياذة: «حرب تناقل العرب أخبارها وتناشدوا شعرها، على مرّ القرون، حتّى أيّامنا هذه، وصاغوها بقوالب شتّى لا يصلح قالب منها لصوغ الملاحم التامّة كالإلياذة. ومع هذا فإنّ جميع ما قيل فيها من الكلام المنظوم أقرب نسبة إلى الشعر القصصيّ منه إلى الموسيقى، فكلّ قصيدة منها قطعة من ملحمة. ولكن تلك القطع غير ملتئمة لفقدان اللحمة بينها، فهي كالحجارة المنحوتة قد أحكمت صنعتها، وبقيت ملقاة على أرضها غير مرصوصة بالبناء».

وأشهر أيّام قيس فيما بينها يوم «داحس والغبراء» وقد قيل فيها الشعر الكثير،

وهي حرب السباق بين عبس وذبيان، وقد كانت سجالًا بينهما وانتهت أخيرًا بصلح. وقد ذُكرت هذه الحرب في معلّقة زهير بن أبي سلمى، حيث مدح هرم بن سنان الذي توسّط بالصلح بين قبيلتي عبس وذبيان، وتولّى دفع ديات القتلى، من الجانبين.

أمّا موضوعات الشّعر الحماسي في الجاهليّة، فتدور بمعظمها حول وصف المعارك والحروب، وما يتفرّع عنها من أعمال بطوليّة، كالكرّ والفرّ، إضافة إلى وصف الخيول، وأدوات الحرب من رماح وسيوف ودروع. وقد برع شعراء الجاهليّة في نقل المعارك الحربيّة، وتصويرها حيّة، وتصوير نتائجها الوخيمة، ومآسيها وويلاتها. ولا بدّ من العودة إلى معلّقة زهير بن أبي سلمى لنستدلّ على روعة التصوير وبراعة الشاعر في وصف ويلات حرب داحس والغبراء وأهوالها. أمّا أسباب نشوب الحرب، فهي قائمة في كلّ لحظة، إذ يكفي أن تغتصب المراعي، أو أن ينشأ نزاع بين شخصين من قبيلتين حتّى تهبّ القبيلة بأسرها غاضبة متوعّدة بفرسانها ورجالها ونسائها، فإذا برئيس القوم، أو شيخ القبيلة، ينطلق إلى ساحة الوغى، وإذا القبيلتان في حرب دامية، وإذا الرماح في الصدور والسّيوف في الرّقاب، والدّماء تسيل غزيرة من الجانبين. ثم ينجلي الموقف عن طرف مهزوم، وآخر منتصر، فيعود الجميع إلى قواعدهم يتأهّبون لمعركة جديدة تفرضها عليهم أسباب جديدة، أو يسعون إلى عقد أحلاف جديدة لمواجهة التطوّرات المستجدّة.

وعلى هذا الأساس كان الشّعراء الجاهليّون يصفون أبطالهم بالشدّة والشجاعة والبأس، وقوّة السّاعد، وقوّة الشّكيمة، والحكمة في الكرّ والفرّ، والعفّة في تقاسم مغانم الحرب. وكانوا يصفون خيولهم بالسرعة والخفّة في الانقضاض على العدوّ، كما يصفونها بالضّمور ومتانة السّاقين، وطول الذّنب، ويشبّهونها بالظّباء والنّعام والعقبان. أمّا سلاحهم فيذكرون بلاءه في قطع الرؤوس ولمعانه وقدرته على اختراق صدور الأعداء. ولو شئنا أن نقيم الدليل على أنّ في الشعر الجاهلي مجالًا واسعًا لشعر الحماسة، لاكتفينا بالعودة إلى معلقات عمرو بن كلثوم، وعنترة بن شدّاد،

والحارث بن حلّزة، حيث نجد أنّ الحديث عن القتال ووصف المعارك هو غذاؤهم اليومي، وأن لغة الحرب والطّعان والنزال هي لغتهم في أروع بيانها وأبرع صورها.

فها هو الشاعر عمرو بن كلثوم يسود قومه وهو في الخامسة عشرة من عمره، فيقود الجيوش مظفّرًا. ولمّا نشأ الخلاف بين قبيلته تغلب وقبيلة بكر، التي ينتمي إليها الحارث بن حلّزة، وقف عمرو بن هند إلى جانب بكر، فإذا بعمرو بن كلثوم يغضب ويقتل الملك عمرو بن هند في مجلسه ثم يرتحل إلى قومه ناجيًا بنفسه، وإذا بنا، ونحن نقرأ معلّقته، أمام قائد شجاع، سيّد في قومه، يحمل السّلاحَ دفاعًا عن العزَّة والشّرف، يخوض ميادين القتال حيث تتعانق السّيوف والرّماح وتسيل الدّماء الغزيرة، فيبني الأمجاد على رؤوس جماجم أعدائه، كلّ ذلك بأسلوب ملحمي رائع وصياغة فنيّة محكمة.

أمّا الحارث بن حلّزة اليشكري، فيقف بوجه عمرو بن كلثوم، ويدافع عن قومه في معلّقته بأسلوب خطابيّ ملحميّ لا يقلّ أهميّة عن شعر خصمه، فيحار القارئ في إيثار أحدهما على الآخر.

وعنترة بن شدّاد هو خير من يمثّل الحماسة في شعره، فهو بطل تناولت الأسطورة أعماله فجعلت منه المثال الأعلى في الفروسية والشجاعة. وكان حافزه على البطولة، رغبته في استرضاء ابنة عمّه عبلة، ومحو سواد جلده ببيض فعاله. وشاخ عنترة وظلَّ رجل السّيف والرّمح، وقد اشترك في حرب داحس والغبراء، وكان بطلها الأبرز. وبالعودة إلى أخباره، نراه فارسًا يتحلّى بالشجاعة، والشرف، والمروءة، والعفّة وهو يقاتل في سبيل هدف أعلى، أمّا من النّاحية الفنّيّة فهو شاعر فيّاض القريحة، يلتهب حماسة، وهو بطل ملحميّ يعتمد على سيفه وساعده ليثبت حقّه في الحريّة وبالتالي جدارته بحبّ ابنة عمّه عبلة محاولًا الرّبط بين فكرة البطولة وفكرة الحبّ. إلى جانب الشجاعة حاول عنترة أن يظهر بمظهر الفارس الذي يتحلّى بالصفات الكريمة، والرجولة الحقّة التي تزينها الأخلاق العربيّة من شجاعة، وكرم، ومروءة، ونجدة، ووفاء، وحسن جوار وعفّة قلب ولسان.

عنترة بن شداد

هو أحد أبطال العرب وشعرائهم المشهورين (٠٠٠ ـ نحو ٦٠٠ م/٢٢ ق هـ). كان من أحسن العرب شيمةً وأعزّهم نفساً. يوصف بالحلم على شدّة بطشه. أحبّ عبلة ابنة عمه. ولاقى في سبيلها ضروباً من المرارة والعذاب بسبب لونه، وعدم تمتّعه بحرّيته في بداية حياته. أكثر شعره في الفخر والحماسة والغزل. وفيما يلي مقتطفات من فخره.

★ ★ ★

حصاني كان دلّال المنايا

إذا كَشَفَ الزَّمانُ لَكَ القِناعا ... وَمَدَّ إليْكَ صَرْفُ الدَّهْرِ باعا

فَلاَ تَخْشَ المَنِيَّةَ والتَقيْها ... ودافِعْ ما ٱسْتَطَعْتَ لها دِفاعا[1]

ولا تَخْتَرْ فِراشاً مِنْ حَرِيْرٍ ... ولا تَبْكِ المنازِلَ والْبِقاعا

وفي يَوْمِ المصانِعِ قَدْ تَرَكْنا ... لَنا بِفِعالِنا خَبَرًا مُشاعا

أَقَمْنا بالذَّوابِلِ سوقَ حَرْبٍ ... وَصَيَّرْنا النّفوسَ لها مَتاعا[2]

(١) المنيّة: الموت.

(٢) يُشير الشاعر إلى معركة المصانع حيث جعل منها سوقًا بضاعتها النفوس.

حِصانـي كـانَ دلاّلَ المنـايـا ... فَخَاضَ غُبارَهـا، وَشَرى وبـاعـا
وسَيْفـي كـانَ فـي الهَيْجـا طبيبًـا ... يَداوي رَأْسَ مَنْ يَشْكُو الصُّداعـا[1]
أنـا العَبْـدُ الذي خُبِّـرْتَ عَنْـهُ ... وَقَـدْ عـايَنْتَني، فَـدَعِ السَّمـاعَـا
وَلَـوْ أَرْسَلْـتُ رُمْحِي مَـعْ جَبـانٍ ... لَكـانَ بِهَيْبَتـي يَلْقَـى السِّبـاعـا
مَلأْتُ الأَرْضَ خَوْفًا مـن حُسامـي ... وَخَصْمِي لم يَجِـدْ فيهـا ٱتِّساعـا[2]
إذا الأَبْطـالُ فَـرَّتْ خَـوْفَ بَأْسِـي ... تَـرَى الأَقْطـارَ بـاعًـا أو ذِراعـا

★ ★ ★

خُلِقْتُ لِلْحَرْبِ أُحْميها إذا بَـرِدَتْ ... وأَصْطَلِي بِلَظَاهـا حَيْثُ أَخْتَـرِقُ
لَوْ سابَقَتْني ٱلمَنَـايـا وَهْـيَ طـالِبَـةٌ ... قَبْضَ ٱلنُّفُوسِ أتـاني قَبْلَهـا ٱلسَّبَـقُ

★ ★ ★

سَلُوا صَرْفَ هٰذا ٱلدَّهْرِ كَمْ شَنَّ غارَةً ... فَفَـرَّجْتُهـا وٱلمَوْتُ فِيهَـا مُشَمِّـرُ
بِصَارِمِ عَـزْمٍ لَـوْ ضَـرَبْـتُ بِحَـدِّهِ ... دُجَى ٱللَّيْلِ وَلَّى وَهْوَ بِٱلنَّجْمِ يَعْثُـرُ

★ ★ ★

وَرَمَيْتُ مُهْري في ٱلعَجاجِ فَخاضَـهُ ... وٱلنَّارُ تُقْـدَحُ مِـنْ شِفَـارِ ٱلأَنصُـلِ
خـاضَ ٱلعَجـاجَ مُحَجَّلا حتَّـى إذا ... شَهِـدَ ٱلـوَقِيعَـةَ عـادَ غَيْـرَ مُحَجَّـلِ

★ ★ ★

(١) الهيجاء: الحرب. الصداع: الألم.
(٢) الحسام: السيف القاطع.

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ والرِّمَاحُ نَوَاهِلٌ   مِنّي وَبِيضُ ٱلْهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي

فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ ٱلسُّيُوفِ لأَنَّهَا   لَمَعَتْ كَبَارِقِ ثَغْرِكِ ٱلْمُتَبَسِّمِ

★ ★ ★

إنَّ المَنِيَّةَ لَوْ تَمَثَّلَ شَخْصُهَا   لِي في ٱلعَجَاجِ طَعَنْتُهَا في ٱلأَوَّلِ

وإذا حَمَلْتُ عَلَى الكَرِيهةِ لم أَقُلْ   بَعْدَ ٱلكَرِيهةِ لَيْتَنِي لم أفعَلِ

★ ★ ★

دَعْنِي أَجِدَّ إِلَى ٱلعَلْيَاءِ في ٱلطَّلَبِ   وَأَبْلُغِ ٱلغَايَةَ ٱلقُصْوَى مِنَ ٱلرُّتَبِ

يَا عَبْلَ قُومِي ٱنْظُرِي فِعْلِي وَلاَ تَسَلِي   عَنِّي ٱلحَسُودَ ٱلَّذِي يُنْبِيكِ بِٱلْكَذِبِ

إنْ أَقْبَلَتْ حَدَقُ ٱلْفُرْسَانِ تَرْمُقُنِي   وَكُلُّ مِقْدَامِ حَرْبٍ مَال لِلْهَرَبِ

فَمَا تَرَكْتُ لَهُمْ وَجْهًا لِمُنْهَزِمٍ   وَلاَ طَرِيقًا يُنَجِّيهِمْ مِنَ ٱلْعَطَبِ

فَبَادِرِي وَٱنْظُرِي طَعْنًا إذَا نَظَرَتْ   عَيْنُ ٱلْوَلِيدِ إلَيْهِ شَابَ وَهْوَ صَبِي

خُلِقْتُ لِلْحَرْبِ أُحْمِيهَا إذَا بَرَدَتْ   وَأَصْطَلِي نَارَهَا فِي شِدَّةِ ٱللَّهَبِ

وَقَدْ طَلَبْتُ مِنَ ٱلْعَلْيَاءِ مَنْزِلَةً   بِصَارِمِي لاَ بِأُمِّي لاَ وَلاَ بِأَبِي

★ ★ ★

قَالَ عَنْتَرة يَتَهَدَّدُ هَوَازِنَ وَجُشَمَ وَكَانَا قَدْ أَغَارَا عَلَى دِيَارِ عَبْسٍ :

سكَتُّ فَغَرَّ أَعْدَائِي ٱلسُّكُوتُ   وَظَنُّونِي لأَهْلِي قَدْ نَسِيتُ

وَكَيْفَ أَنَامُ عَنْ سَادَاتِ قَوْمٍ   أَنَا فِي فَضْلِ نِعْمَتِهِمْ رَبِيتُ

وَإنْ دَارَتْ بِهِمْ خَيْلُ ٱلأَعَادِي   وَنَادَوْنِي أَجَبْتُ مَتَى دُعِيتُ

بِسَيْفٍ حَدُّهُ مَوْجُ ٱلْمَنَايَا   وَرُمْحٍ صَدْرُهُ ٱلْحَتْفُ ٱلْمُمِيتُ

خُلِقْتُ مِنَ ٱلْحَدِيدِ أَشَدَّ قَلْبًا ... وَقَدْ بَلِيَ ٱلْحَدِيدُ وَمَا بَلِيتُ
وَإِنِّي قَدْ شَرِبْتُ دَمَ ٱلأَعَادِي ... بِأَقْحَافِ ٱلرُّؤُوسِ وَمَا رَوِيتُ
وَفِي ٱلْحَرْبِ ٱلْعَوَانِ وُلِدتُ طِفلاً ... وَمِنْ لَبَنِ ٱلْمَعَامِعِ قَدْ سُقِيتُ
فَمَا لِلْرُّمْحِ فِي جِسْمِي نَصِيبٌ ... وَلاَ لِلْسَّيْفِ فِي أَعْضَايَ قُوتُ
وَلِي بَيْتٌ عَلاَ فَلَكَ ٱلثُّرَيَّا ... تَخُرُّ لِعُظْمِ هَيْبَتِهِ ٱلْبُيُوتُ

★ ★ ★

أُعَادِي صَرْفَ دَهْرٍ لاَ يُعَادَى ... وَأَحْتَمِلُ ٱلْقَطِيعَةَ وَٱلْبِعَادَا
وَأُظْهِرُ نُصْحَ قَوْمٍ ضَيَّعُونِي ... وَإِنْ خَانَتْ قُلُوبُهُمُ ٱلْوِدَادَا
أُعَلِّلُ بِٱلْمُنَى قَلْبًا عَلِيلًا ... وَبِٱلصَّبْرِ ٱلْجَمِيلِ وَإِنْ تَمَادَى
تُعَيِّرُنِي ٱلْعِدَى بِسَوَادِ جِلْدِي ... وَبِيضُ خَصَائِلِي تَمْحُو ٱلسَّوَادَا
وَرَدتُ ٱلْحَرْبَ وَٱلأَبْطَالُ حَوْلِي ... تَهُزُّ أَكُفُّهَا ٱلسُّمْرَ ٱلصِّعَادَا
وَخُضْتُ بِمُهْجَتِي بَحْرَ ٱلْمَنَايَا ... وَنَارُ ٱلْحَرْبِ تَتَّقِدُ ٱتِّقَادَا
وَعُدْتُ مُخَضَّبًا بِدَمِ ٱلأَعَادِي ... ٱلرَّكْضِ قَدْ خَضَبَ ٱلْجَوَادَا
وَسَيْفِي مُرْهَفُ ٱلْحَدَّيْنِ مَاضٍ ... تَقُدُّ شِفَارُهُ ٱلصَّخْرَ ٱلْجَمَادَا
وَرُمْحِي مَا طَعَنْتُ بِهِ طَعِينًا ... فَعَادَ بِعَيْنِهِ نَظَرَ ٱلرَّشَادَا
وَلَوْلاَ صَارِمِي وَسِنَانُ رُمْحِي ... لَمَا رَفَعَتْ بَنُو عبْسٍ عِمَادَا

★ ★ ★

عمرو بن كلثوم

هو أبو الأسود عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتّاب (٠٠٠ ـ نحو ٤٠ ق هـ/ ٥٨٤ م) شاعر جاهليّ من الطبقة الأولى وُلد في بلاد ربيعة في شمالي جزيرة العرب. وهو الذي قتل ملك الحيرة عمرو بن هند. له المعلّقة النونيّة المشهورة، ولعلّها من أروع ما قيل من قصائد في الفخر والحماسة، إنْ لم نقل أروعها. ورُوي في مناسبة هذه القصيدة.

أنّه احتكمت قبيلتا بكر وتغلب، بعد قتال، إلى عمرو بن هند ملك الحيرة، وكان عمرو بن كلثوم لسان قبيلته تغلب، فأنشد قِسْمًا من معلّقته، وغالَى في الفخر والمباهاة. وفي أحد الأيّام أراد عمرو بن هند أن يُذِلّ ابن كلثوم، فاستزاره، وطلب أن يُزير أمّه أمَّه. فحاولت أمّ ابن هند أن تستخدم أمّ ابن كلثوم، وطلبت منها على المائدة أن تناولها طبق الطَّرَف، فأبت، وصاحت: «واذّلاه! يا لتغلب»، فهبّ ابنها عمرو، وتناول سيفًا، وضرب به رأس الملك، ثمَّ أنشد بعض أبيات معلّقته. وفيما يلي جزء من هذه المعلَّقة.

أبا هِنْدٍ، فَلا تَعْجَلْ عَلَيْنا ... وَأَنْظِرْنا نُخَبِّرْكَ اليَقِيْنا:[1]

بِأَنّا نُورِدُ الرّاياتِ بِيْضًا ... وَنُصْدِرُهُنَّ حُمْرًا قَدْ رَوِيْنا[2]

---

(١) أبا هند: يريد عمرو بن هند. أَنْظِرْنا: أَمْهِلْنا.

(٢) الرايات: الأعلام. يقول: إنَّ قومه تردهم الأعلام بيضاء، فيصدّرونها حمراء من دماء الأعداء.

وَأَيّــامٍ لَنــا غُــرٍّ طِــوالٍ عَصَيْنا المَلْكَ فِيْهـا أَنْ نَـدِينـا[١]

وَرِثْنـا المَجْـدَ قَـدْ عَلِمَـتْ مَعَـدٌّ نُطـاعِـنُ دونَـهُ حَتَّـى يَبِيْنـا[٢]

بِشُبّـانٍ يَـرَونَ القَتْـلَ مَجْـدًا وَشِيْـبٍ فـي الحُروبِ مُجَـرَّبِينـا

نُطـاعِـنُ مـا تَـراخَـى النّـاسُ عَنّـا وَنَضْـرِبُ بـالسُّيـوفِ إذا غُشِينـا[٣]

نَجُـذُّ رؤوسَهُـمْ فـي غَيْـرِ بِـرٍّ فَمـا يَـدْرونَ مـاذا يَتَّقـونـا[٤]

تُهَـدِّدُنـا، وتُـوعِـدُنـا، رُوَيْـدًا مَتَّـى كُنّـا لأُمِّـك مَقْتَـوِينـا[٥]

فَـإنَّ قَنـاتَنـا، يـا عَمْـرو، أَعْيَـتْ علـى الأعْـداءِ قَبْلَـكَ أَنْ تَلِينـا

وَنَشْرَبُ، إنْ وَرَدْنـا، المـاءَ صَفْـوًا وَيَشْـرَبُ غَيْـرُنـا كَـدَرًا وطِينـا[٦]

إذا مـا المَلْكُ سـامَ النـاسَ خَسْفًـا أبيْنـا أنْ نُقِـرَّ الذّلَّ فِينـا[٧]

مَلأْنـا البَـرَّ حَتَّـى ضـاقَ عَنّـا ومـاءُ البَحْـرِ نَمْلأُهُ سَفِيْنـا

لنـا الدُّنْيـا ومَـنْ أَضْحَـى عَلَيهـا ونَبْطُشُ حِيْـنَ نَبْطُشُ قـادِرينـا

إذا بَلَـغَ الفطَـامَ لنـا صَبِـيٌّ تَخـرُّ لَـهُ الجَبـابِـرُ ساجِـدينـا[٨].

★ ★ ★

---

(١) أيّام: معارك. غُرّ: مشهورة. أن ندين: أي كراهية أن نتذلَّل.
(٢) معد: اسم قبيلة، والشاعر منها.
(٣) تراخى: تباعد. غُشينا: فاجَأنا العدو.
(٤) نجذّ: نقطع. برّ: رحمة.
(٥) مَقْتَوِينا: خدمًا.
(٦) يريد أنّهم السّادة والقادة، وغيرهم أتباع لهم؛ فالشاعر وقومه يأخذون من كلّ شيء أفضله، ويتركون لغيرهم ما ردُؤ.
(٧) سامَ الناسَ خَسْفًا: أذَلّهم، وظلَّمهم.
(٨) يقول: إذا بلغ صبيانُنا وقت الفطام، سجدت لهم الجبابرة من غيرنا.

السَّمَوْأل

هو شاعر جاهلي حكيم (٠٠٠-نحو ٦٥ق هـ/٠٠٠-نحو ٥٦٠م). من سكان خيبر (في شماليّ المدينة). كان يتنقل بينها وبين حصن له سماه « الأبلق ». له القصيدة اللاميّة المشهورة في الفخر. ورُوي في مناسبة هذه القصيدة أنَّ السموأل خطب امرأة، فَرَدَّته بحجَّة ضعف قبيلته لقِلَّة عددها مُنْكِرَةً عليه بعض الأشياء، فخطبها آخر يظهر أنَّه من قبيلتي عامر وسلول، فأجابته، ففاخرها السموأل بهذه القصيدة:

إنَّ الكرامَ قَليلُ

إذا المَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤمِ عِرْضُـهُ ... فكُـلُّ رِداءٍ يَـرْتَـدِيْـهِ جَمِيْـلُ[1]

وَإنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ على النَّفْسِ ضَيْمَها ... فَلَيْسَ إلـى حُسْـنِ الثَّنـاءِ سَبِيـلُ[2]

تُعَيِّرُنـا أنّـا قَلِيْـلٌ عَـدِيْـدُنـا ... فَقُلْـتُ لَهـا: إنَّ الكِـرامَ قَلِيْـلُ

---

(١) يدنس: يوسّخ، يلطّخ. عِرضه: شرفه.

(٢) الضَّيم: الظلم، الإذلال. الثناء: المدح.

وما قَلَّ مَنْ كانَتْ بَقاياهُ مِثْلَنا ... شَبابٌ تَسامى لِلْعُلَى وَكُهُولُ[1]
لَنا جَبَلٌ يَحْتَلُّهُ مَنْ نُجيرُهُ ... مَنيعٌ يَرُدُّ الطَّرْفَ، وَهْوَ كَليلُ[2]
وإنّا لَقَوْمٌ لا نَرَى القَتْلَ سُبَّةً ... إذا ما رَأَتْهُ عامِرٌ وسَلولُ[3]
يُقَرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنا لَنا ... وَتَكْرَهُهُ آجالُهُمْ، فَتَطولُ
وما ماتَ مِنّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ ... ولا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كانَ قَتيلُ[4]
تَسيلُ على حَدِّ الظُّباتِ نُفوسُنا ... وَلَيْسَتْ على غَيرِ الظُّباتِ تَسيلُ[5]
وَنُنْكِرُ، إنْ شِئْنا، على الناسِ قَوْلَهُمْ ... ولا يُنْكِرونَ القولَ حِيْنَ نَقولُ[6]
إذا سَيِّدٌ مِنّا خَلا، قامَ سَيِّدٌ ... قَؤُولٌ لِما قالَ الكِرامُ فَعولُ[7]
وما أُخمِدَتْ نارٌ لَنا دونَ طارِقٍ ... ولا ذَمَّنا في النازلينَ نَزيلُ[8]
وَأَيّامُنا مَشْهورَةٌ في عَدُوِّنا ... لها غُرَرٌ مَعْلومَةٌ وَحُجولُ[9]
وَأَسْيافُنا في كُلِّ غَرْبٍ وَمَشْرِقٍ ... بِها مِنْ قِراعِ الدّارعينَ فُلولُ[10]

---

(١) تسامى: أي تتسامى: ترتفع. كهول: ج كهل، وهو من كانت سِنّه بين الثلاثين والخمسين تقريبًا.
(٢) جبل: كناية عن «الأبلق الفرد» وهو حصن السمؤال.
(٣) السُبَّة: العار. عامر وسلول: قبيلتان عربيّتان، يبدو أنّ الذي خطب حبيبة السموأل منهما.
(٤) مات حتف أنفه: أي مات على فراشه من غير قتل أو ضرب.
(٥) الظبات: ج ظُبة، وهي حدّ السيف.
(٦) أنكر عليه القول: عابه.
(٧) خلا: مات.
(٨) أخمدت: انطفأت. الطارق: الآتي ليلًا.
(٩) الأيّام: الحروب والمواقع. غرر: ج غرّة، وهي بياض في جبهة الفرس. حجول: ج حَجْل، وهو بياض في رِجْل الفرس.
(١٠) الدارعين: ج دارع، وهو لابس الدّرع. فلول: ج فَلّ، وهو الكسر في حدّ السيف.

مُعَـوَّدَةٌ أنْ لا تُسَـلَّ سُيُـوفُنـا   فَتُغْمَـدَ حَتَّـى يُسْتَبـاحَ قَبِيـلُ[1]

سَلِي، إنْ جَهِلْتِ، الناسَ عَنّا وَعَنْهُـمُ   فَلَيْسَ سَـواءً عـالِـمٌ وَجَهُـولُ

★ ★ ★

---

(١) تُسَلّ: تُشْهَر، تُخرج من الغِمد، وهو غلاف السيف.

أبو أذينة

شاعر جاهليّ خطيب، وهو ابن عمّ الأسود بن المنذر ملك الحيرة (٤٧٣ - ٤٩٣ م؟). له قطعة خطابيّة رائعة في قوّة لهجتها، وصرامة حكمها، وبلاغة إيجازها. وسبب إنشادها أنَّ الغساسنة كانوا قد قتلوا، في إحدى غاراتهم، أخاً لأبي أذينة، فخرج عليهم الأسود ومعه الشاعر. فانتصر، وأسر عدداً من أمرائهم. فقتل بعضهم، وأراد استبقاء البعض الآخر في سبيل طلب الفدية. فقام أبو أذينة، وألقى هذه الأبيات الرائعة، فردّ الأسود عن عزمه، وهاجه حتى أمر بقتل سائر الأسرى. وفيما يلي خطبته الشعريَّة:

مَا كُلَّ يَـوْمٍ يَنَـالُ ٱلْمَـرْءُ مَـا طَلَبَـا ... وَلَا يُسَـوِّغُـهُ ٱلْمِقْـدَارُ مَـا وَهَبَـا

وَأَحْزَمُ ٱلنَّاسِ مَنْ إِنْ فُرْصَةٌ عَرَضَـتْ ... لَمْ يَجْعَلِ ٱلسَّبَبَ ٱلْمَوْصُولَ مُنْقَضِبَـا

وَأَنْصَفُ ٱلنَّاسِ فِي كُلِّ ٱلْمَوَاطِنِ مَـنْ ... سَقَى ٱلْمُعَادِينَ بِٱلْكَأْسِ ٱلَّتِي شَـرِبَـا

وَلَيْسَ يَظْلِمُهُـمْ مَـنْ رَاحَ يَضْـرِبُهُـمْ ... بِحَدِّ سَيْـفٍ بِـهِ مِـنْ قَبْلِهِـم ضُـرِبَـا

وَٱلْعَفْـوُ إِلَّا عَـنِ ٱلْأَكْفَـاءِ مَكْـرُمَـةٌ ... مَنْ قَالَ غَيْرَ ٱلَّذِي قَـدْ قُلْتُـهُ كَـذَبَـا

قَتَلْتَ عَمْـرًا وَتَسْتَبْقِـي يـزِيـدَ لَقَـدْ ... رَأَيْتَ رَأْيًا يَجُـرُّ ٱلْـوَيْـلَ وَٱلْحَـرَبَـا

لَا تَقْطَعَـنْ ذَنَـبَ ٱلْأَفْعَـى وَتُـرْسِلَهَـا ... إِنْ كُنْتَ شَهْمًا فَأَتْبِـعْ رَأْسَهَـا الذَّنَبَـا

هُمْ جَرَّدُوا ٱلسَّيْفَ فَٱجْعَلْهُمْ لَهُ جُزُرًا وَأَوْقَدُوا ٱلنَّارَ فَٱجْعَلْهُمْ لَهَا حَطَبَا

إِنْ تَعْفُ عَنْهُم يَقُولُ ٱلنَّاسُ كُلُّهُمُ لَمْ يَعْفُ حِلْمًا وَلٰكِن عَفْوُهُ رَهَبَا

هُمُ أَهِلَّةُ غَسَّانٍ وَمَجْدُهُمُ عَالٍ فَإِنْ حَاوَلُوا مُلْكًا فَلَا عَجَبَا

وَعَرَّضُوا بِفِدَاءٍ وَاصِفِينَ لَنَا خَيْلًا وإِبْلًا تَرُوقُ ٱلْعُجْمَ وَٱلعَرَبَا

أَيَحْلُبُونَ دَمًا مِنَّا وَنَحْلُبُهُمْ رِسْلًا لَقَدْ شَرَفُونَا فِي ٱلْوَرَى حَلَبَا

عَلَامَ تَقْبَلُ مِنْهُمْ فِدْيَةً وَهُمُ لَا فِضَّةً قَبِلُوا مِنَّا وَلَا ذَهَبَا

* * *

القسم الثاني

الفخر والحماسة في العصرِ الأمويّ

(٦٦١ م – ٧٥٠ م)

٣ ـ الفخر والحماسة في العصر الأموي

يعتبر عصر بني أميّة عصر الصراع السياسي إذ قامت الأحزاب المتعدّدة، الموالية منها والمعارضة لسياسة بني أميّة. وكان لا بدّ للشعر من أن يخوض معركة الصراع السياسي، وأن يدخل في صميم الجدل القائم حول الخلافة. وإذا بالصراعات القديمة تعود إلى الظهور، وإذا بالفتن تتجدّد بين العصبيّات، من قحطانية إلى عدنانية، ومن قيسية إلى يمنيّة، وبين الهاشميين والأمويّين وبين الأنصار والمهاجرين والشّيعة والخوارج والزبيريّين... . وقد ساعدت سياسة بني أميّة في إذكاء نيران العصبيّة بين القبائل والأحزاب، ليصرفوها عن الاهتمام بشؤون الخلافة، ويقصوها عن شؤون الخلافة والحكم. فمنذ أن بويع عليّ بن أبي طالب بالخلافة، قام في وجهه ابن الزبير يناصبه العداء، كما قام بوجهه معاوية بن أبي سفيان يطالب بدم عثمان ويطمع في الخلافة لنفسه، ثم قام الخوارج في وجه عليّ ومعاوية فيما بعد. وهكذا انقسم العرب أحزابًا، وتفتّتت الصفوف، وكان لا بدّ أن تتمّ المواجهة، فإذا بعليّ بن أبي طالب يسيّر جيشه الى الكوفة فيسكت معارضة ابن الزبير وأنصار عائشة، ويبدّد شمل سائر المعارضين، ثم يسيّر جيشه الى صفين لملاقاة جيش معاوية، حيث كادت الغلبة أن تتمّ لجيشه. لكنّ معاوية لجأ إلى الحيلة، فطلب من جنوده أن يرفعوا المصاحف فوق رماحهم، طالبًا «التحكيم». وتتابعت الأحداث، فيما بعد، لتقضي على علي بن أبي طالب وتثبت خلافة معاوية. فإذا ببني أميّة يتربّعون على عرش الخلافة، ويجعلونها وراثيّة،

ضاربين بمبدأ الشّورى عرض الحائط. وقد تميّز حكمهم بالعودة إلى العصبية القبليّة، فأنشأوا حزبًا سياسيًّا، وجمعوا حولهم الشّعراء، وأغدقوا عليهم العطايا والهبات، فراح هؤلاء يؤكدون على حقّ بني أميّة الإلهي في الخلافة بعد موقعة صفّين. والى جانب الحزب الأموي الحاكم نشأ حزب الشيعة أو الحزب العلوي الذي حصر منصب الإمامة في ذرّيّة عليّ بن أبي طالب، وكانت له مواقع متعدّدة مع جيش بني أميّة. أمّا الخوارج فقد سمّوا بذلك لأنّهم خرجوا على طاعة علي بعد قبوله مبدأ التحكيم، ووقف القتال في صفّين، وقد رفضوا مبدأ الوراثة واعتبروا الخلافة حقًّا لكلِ مسلم، ورفعوا شعار «لا حكم إلا حكم الله». وقد عاملهم بنو أميّة بالقسوة وأخمدوا ثورتهم بالقوّة وسفك الدّماء. أمّا الزبيريّون فقد وقفوا في وجه معاوية، وعلى رأسهم عبد الله بن الزبير الذي أعلن نفسه خليفة في الحجاز إثر وفاة معاوية قاطعًا الدرب على ابنه يزيد. وقد تولّى الحجّاج، في خلافةُ عبد الملك بن مروان، حصار مكّةْ وقتل الزبير وأعوانه. إلى جانب هذه الأحزاب، هناك حزب الأنصار، وهم الذين ناصروا النبيّ من أهل المدينة وكانوا حلفاء عليّ في نزاعه مع معاوية. وقد انفجرت كراهيتهم لبني أميّة بعد موقعة صفّين، وانضمّوا إلى ابن الزبير حين أعلن نفسه خليفة على الحجاز.

وهكذا كان لكلّ حزب، شعراء يساندونه بأقلامهم، بشعر حماسيّ شديد اللهجة. من هؤلاء الشعراء قطريّ بن الفجاءة، وعمران بن حطّان، والطّرمّاح بن حكيم للخوارج والكميت الأسدي وكثيّر عزّة للشيعة، وعبيد الله بن قيس الرقيّات للزبيريّين، وأعشى ربيعة والنابغة الشيباني وغيرهم للأمويّين. وإلى جانب هؤلاء جميعًا ثلاثة من كبار شعراء ذلك العصر أعني بهم المثلّث الأموي الأخطل والفرزدق وجريرًا. وكان شعر هؤلاء الشعراء جميعًا سلاحًا في وجه الخصوم، حيث كان الشّاعر يسعى إلى إعلاء شأن قومه بأن يخلع عليهم صفات المكارم والفضائل، وينزعها عن خصومه. فإذا القصيدة الواحدة بمعظمها مدح وهجاء حتّى تصبح القصائد متشابهة، فتضيع معالم الحقيقة، ويحار القارئ في معرفة أي

الشّاعرين أصدق، وأيّ القوم أشجع وأكرم وأشدّ بأسًا وقوّة.

أمّا تلك الأحزاب المتصارعة، فكان لها شعراؤها ينشرون مبادئها ويهاجمون خصومها. فالسلطة الحاكمة اعتمدت على السّيف والبطش في معاملة الخصوم من جهة، كما اعتمدت على إغداق الأموال والهبات لاستمالة هؤلاء الخصوم من جهة ثانية. فقرّبت الشعراء الذين توافدوا يمدحون بني أميّة، خوفًا من بأسهم، أو طمعًا في مالهم، فغلب على شعرهم التقليد حيثُ ظلّ يدور حول الكرم والحلم والشجاعة وحسن السياسة وعراقة النسب إضافة إلى الحقّ الإلهي الذي تجلّى إثر موقعة صفّين.

والشيعة بدورهم كان لهم شعراؤهم الذين أظهروا ولاءهم لآل البيت، وأعلنوا عن طمعهم بالخلافة، فجاء شعرهم يعبّر عن السخط والألم، ويحمل دعوة صريحة إلى الجهاد في سبيل الخلافة. وقد تميّز شعر الشيّعة بالاحتجاج والغضب والتهديد حينًا وبالرّقة والحزن حينًا آخر وسمّي بالهاشميّات.

أمّا الزبيريون فوقفوا من بني أميّة موقف العداوة، وراح شاعرهم عبيد الله بن قيس الرقيّات يدعو بني قريش إلى الوحدة وجمع الشمل، ويبكي لما أصابهم من التفرقة، ويؤجج نار الثورة على بني أميّة الذين أسهموا في تفتيت وحدة قريش وبذر الشّقاق والعداوة بين المسلمين.

وللخوارج شعراؤهم يدافعون عن عقيدتهم الصلبة بقوّة وعناد، ويكتبون أشعارهم بشفار السّيوف، ورؤوس الرّماح، وهو شعر الاستماتة في سبيل تحقيق الغاية التي يناضلون من أجلها والتي يردّدونها دائمًا: «لا حكم إلا حكم الله» فإذا شعرهم تعبير صادق عن إيمانهم الرّاسخ، وعقيدتهم الثّابتة، وإذا به يفوح بآرائهم الفلسفيّة التي تزدري الحياة، وتعتبرها مرحلة زائلة، وتقدّس الشّهادة وتعتبر الموت على حدّ السّيوف هو الخلود والعزّ.

أمّا شعراء المثلّث الأموي، فكان للفخر والحماسة مكان بارز في شعرهم.

فالأخطل يعدّد الحروب التي خاضها قومه وكانت لهم الغلبة على أعدائهم، فيذكر يوم «إراب» وكان النصر لتغلب قوم الشّاعر على قيس قوم جرير. وقد تميّز شعر الأخطل بالصبغة السياسيّة، حيث كانت قبيلته موالية لسلطة بني أميّة، كما اصطبغ فخره بالصبغة الجاهليّة التي تعتمد على تعداد الأمجاد القبليّة في نفس ملحمي بارز. أمّا الفرزدق فكان شعره بكامله دفاعًا عن قومه، وتمجيدًا لهم، وهجاء لخصومهم، وظلّ طوال حياته لسان قبيلته يرفع لواءها ويعدد مآثرها في الجاهلية والإسلام، متعاليًا على الشاعر جرير. وقد ساعده على ذلك، قومه الأشراف من ناحية الأب والأم، وجدّه «صعصعة» الملقب بـ «محيي الوئيدات»، كما ساعده أيضاً حقارة بيت جرير وهو مثله من بني تميم. وهكذا انطلق الفرزدق مادحًا قومه متصدّيًا للأخطل وجرير، فإذا قومه أعزّ العرب بيتًا، وأرفعهم شرفًا، وأوسعهم خيرًا وكرمًا، وأوسعهم حلومًا وعقولًا، وإذا هو في قومه كريم كالبحر، شجاع كالأسد، رفيع كالبدر والسحاب، كلّ ذلك باسلوب أقرب ما يكون إلى الجاهليّة. أمّا جرير فقد مزج المدح بالفخر والهجاء، وذكر قومه في الجاهليّة والإسلام، وفخر بسيفه ولسانه، فاذا سيفه بتّار يستمدّ صلابته من قلب جريء، وساعد متين، ونفس لا تهاب الموت. أمّا شعره فإنّه ينزل على الشّعراء كالصواعق؛ وهو فخور بانتمائه إلى مضر التي نزلت فيها النبوّة وفي ذلك سلاح له ضد الأخطل. ولكنّه حين يهجو الفرزدق فإنّه يصطدم بأصله الوضيع، وكلاهما من تميم، وفرع الفرزدق أشرف من فرع جرير، فيكتفي بذكر بعض الأيّام التي كانت لبني يربوع قومه. وإذا هجا جرير الأخطل ذكر مواقع القيسيّين مع بني تغلب قوم الأخطل، وعيّره بدينه النّصرانيّ.

تلك كانت مظاهر الفخر في عهد بني أميّة، وقد تطاحنت الأحزاب تطاحنًا شديدًا وكان لنا شعر ينزع إلى ذكر الوقائع والأيّام وتعداد الأمجاد، وقد امتاز هذا الشعر باتّساع الآفاق الاجتماعيّة والسياسيّة ووصف أدوات الحرب واساليبها وتنظيم الجيوش وخوض القتال، كما ازداد نزوعًا إلى الإقذاع في التعبير.

الفرزدق

هو همّام بن غالب بن صعصعة (٠٠٠ - ١١٠ هـ/ ٧٢٨ م) شاعر من النبلاء، من أهل البصرة، عظيم الأثر في اللغة. كان يقال: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب، ولولا شعره لذهب نصف أخبار الناس. يُشبَّه بزهير بن أبي سلمى. اشتهر بالهجاء، والمدح، والفخر، وفيما يلي قصيدة له في الفخر:

لَنَا ٱلْعِزَّةُ ٱلْقَعْسَاءُ وَٱلْعَدَدُ ٱلَّذِي ... عَلَيْهِ إِذَا عُدَّ ٱلْحَصَى يَتَخَلَّفُ[١]

لَنَا حَيْثُ آفَاقُ ٱلْبَرِيَّةِ تَلْتَقِي ... عَدِيدُ ٱلْحَصَى وَٱلْقَسْوَرُ ٱلْمُتَخَنْدِفُ[٢]

وَمِنَّا ٱلَّذِي لَا تَنْطِقُ ٱلنَّاسُ عِنْدَهُ ... وَلَٰكِنْ هُوَ ٱلْمُسْتَأْذَنُ ٱلْمُتَصَرِّفُ

تَرَاهُمْ قُعُودًا حَوْلَهُ وَعُيُونُهُمْ ... مُكَسَّرَةٌ أَبْصَارُهَا مَا تَطَرَّفُ

وَبُنْيَانُ بَيْتِ ٱللهِ نَحْنُ وُلَاتُهُ ... وَبَيْتٌ بِأَعْلَى ٱلرَّامَتَيْنِ مُشَرَّفُ

تَرَى ٱلنَّاسَ مَا سِرْنَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا ... وَإِنْ نَحْنُ أَوْمَأْنَا إِلَى ٱلنَّاسِ وَقَّفُوا[٣]

وَلَا عِزَّ إِلَّا عِزُّنَا قَاهِرٌ لَهُ ... وَيَسْأَلُنَا ٱلنَّصْفَ ٱلذَّلِيلُ فَنُنْصِفُ[٤]

---

(١) القعساء: المنيعة، الثابتة.

(٢) القسور: السيِّد الكبير الراجح. المتخندف: المنتسب إلى بني خندف.

(٣) أومأنا: أشرنا.

(٤) النصف: العدل.

وَإِنْ فَتَنُوا يَـوْمًـا ضَـرَبْنَـا رؤوسَهُـمْ ... عَلَى ٱلدِّينِ حَتَّـى يُقْتَـلَ ٱلْمُتَـأَلِّـفُ

فَـإِنَّـكَ إِنْ تَسْعَـى لِتُـدْرِكَ دَارِمـاً ... لَأَنْتَ ٱلْمُعَنَّى يَا جَرِيـرُ ٱلْمُكَلَّـفُ[1]

أَتَطْلُبُ مِـنْ عِنْـدِ ٱلنُّجُـومِ مَكَـانَـةً ... بِـرِبْـقٍ وَعَيْـرٍ ظَهْـرُهُ يَتَقَــرَّفُ[2]

وَشَيْخَيْنِ قَدْ عَاشَـا ثَمَـانِيـنَ حِجَّـةً ... ذَلِيلَيْـنِ ذَا هِـمٌّ وَذٰلِـكَ أَعْجَـفُ[3]

عَطَفْتُ عَلَيْكَ ٱلْحَرْبَ إِنِّـي إِذَا وَنَى ... أَخُو ٱلْحَرْبِ كَرَّارٌ عَلَى ٱلْقِرْنِ مُعْطِفُ[4]

أَتَـى لِجَــرِيـرٍ رَهْـطُ سُـوءٍ أَذِلَّــةٌ ... وَعِـرْضٌ لَئِيـمٌ لِلْمَخَـازِي مُـوَقَّــفُ

وَجَدتُ ٱلثَّرَى فِينَا إِذَا وُجِدَ ٱلثَّـرَى ... وَمَنْ هُوَ يَـرْجُـو فَضْلَـهُ ٱلْمُتَضَيِّـفُ

وَنَمْنَـعُ مَـوْلَانَـا وَإِنْ كَـانَ نَـائِيًّــا ... بِنَـا دَارُهُ مِمَّـا يَخَـافُ وَيَــأْنَـفُ

تَرَى جَارَنَـا فِينَـا بِخَيْـرٍ وَإِنْ جَنَـى ... وَلَا هُوَ مِمَّـا يُنْطِـفُ ٱلْجَـارَ يُنْطَـفُ

وَكُنَّا إِذَا نَامَتْ كِلَابٌ عَـنِ ٱلْقِـرَى ... إِلَى ٱلضَّيْفِ نَمْشِي مُسْرِعِينَ وَنُخْلِفُ[5]

وَقَـدْ عَلِـمَ ٱلْجِيـرَانُ أَنَّ قُـدُورَنَــا ... جَوَامِعُ لِلْأَرْزَاقِ وَٱلرِّيحُ زَفْـزَفُ[6]

تَـرَى حَـوْلَهُـنَّ ٱلْمُعْتَفِيـنَ كَـأَنَّهُــمْ ... عَلَى صَنَمٍ فِي ٱلْجَاهِلِيَّـةِ عُكَّـفُ[7]

وَمَـا قَـامَ مِنَّـا قَـائِـمٌ فِـي نَـدِيِّنَــا ... فَيَنْطِـقَ إِلَّا بِـالَّتِـي هِــيَ أَعْـرَفُ

---

(١) المعَنّى: المعذّب. المكلّف: الذي يبذل جهدًا.

(٢) الربق: حبل تُشدّ به المعزى. المتقرّف: المتقرّح والمقشّر من شدّة الامتطاء ومن الرحل يوضَع عليه.

(٣) الهِمّ: الشيخ الفاني. الأعجف: الهزيل.

(٤) القرن: المقاوِم، والنظير في الشجاعة. مُعطِف: مهاجم.

(٥) القِرى: إطعام الضّيوف.

(٦) زفزف: شديدة باردة.

(٧) المعتفين: طالبي المعروف. عكّف. مقبلون، وعليه مستديرون.

وَإِنِّي لِمَنْ قَوْمٍ بِهِـمْ يُتَّقَـى ٱلـرَّدَى ... وَرَأْبُ الثَّأَى وَٱلْجَانِبُ ٱلْمُتَخَوِّفُ [1]

وَأَضْيَـافِ لَيْـلٍ قَـدْ نَقَلْنَا قِـرَاهُـمُ ... إِلَيْنَـا فَـأَتْلَفْنَـا ٱلْمنَـايَـا وَأَتْلَفُـوا

وَكُنَّا إِذَا مَا ٱسْتَكْرَهَ ٱلضَّيْفُ بِٱلْقِـرَى ... أَتَتْهُ ٱلْعَوَالِي وَهْيَ بِـٱلسَّـمِّ رُعَّـفُ [2]

وَكُلَّ قِرَى ٱلْأَضْيَافِ نَقْرِي مِنَ ٱلْقَنَـا ... وَمُعْتَبِطًا مِنْـهُ ٱلسَّنَـامُ ٱلْمُسَـدَّفُ [3]

وَجَدْنَا أَعَزَّ ٱلنَّاسِ أَكْثَرَهُـمْ حَصًـى ... وَأَكْرَمَهُـمْ مَـنْ بِـٱلْمَكَـارِمِ يُعْـرَفُ

وَكِلْتَـاهُمَـا فِينَـا لَنَـا حِيـنَ نَلْتَقِـي ... عَصَائِبَ لَاقَـى بَيْنَهُـنَّ ٱلْمُعَـرَّفُ [4]

مَنَازِيلُ عَـنْ ظَهْـرِ ٱلْقَلِيـلِ كَثِيـرُنَـا ... إِذَا مَـا دَعَـا ذُو ٱلثَّـوْرَةِ ٱلْمُتَـرَدِّفُ

فَلَقْنَا ٱلْحَصَى عَنْهُ ٱلَّذِي فَوْقَ ظَهْـرِهِ ... بِـأَحْلَامِ جُهَّـالٍ إِذَا مَـا تَعَطَّفُـوا

وَجَهْلٍ بِحِلْـمٍ قَـدْ دَفَعْنَـا جُنُـونَـهُ ... وَمَـا كَـادَ لَـوْلَا عِـزُّنَـا يَتَـزَحْلَـفُ

زَجَجْنَا بِهِمْ حَتَّى ٱسْتَبَانُـوا حُلُـومَهُـمْ ... بِنَـا بَعْـدَ مَـا كَـادَ ٱلْقَنَـا يَتَقَصَّـفُ

★ ★ ★

(١) الردى: الموت. الثأى: الفساد. رأبُهُ: إصلاحه.

(٢) العوالي: الرماح. رعَّف: مضمَّخة.

(٣) السنام: أعلى البعير. المُسَدَّف: المقطَّع. والمعنى أنّهم يقرون أعداءهم الرماح، ويقرون الضيوف لحم السّنام المقطَّع.

(٤) المعرّف: الواقف بعرفة.

حسّان بن ثابت

هو الصَّحابيّ حسّان بن ثابت بن المنذر الخزرجيّ الأنصاريّ (٠٠٠ - ٥٤ هـ/ ٦٧٤م) شاعر النبيّ (ﷺ) وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام. عاش ستين سنة في الجاهليّة ومثلها في الإسلام، وكان من سكان المدينة. كان شديد الهجاء، فحل الشعر. له ديوان شعريّ. ومن فخره نقتطف القصيدة التالية:

لَعَمْرُ أَبِيكَ ٱلْخَيرِ يَـا شَعْـثُ مَا نَبَـا ... عَلَيَّ لِسَانِي فِي ٱلْخُطُوبِ وَلَا يَدِي[١]

لِسَانِي وَسَيْفِـي صَـارِمَـانِ كِلَاهُمَـا ... وَيَبْلُغُ مَا لَا يَبْلُغُ ٱلسَّيْفُ مِـذْوَدِي[٢]

وَإِنْ أَكُ ذَا مَـالٍ كَثِيـرٍ أَجُـدْ بِـهِ ... وَإِنْ يُهْتَصَرْ عُودِي عَلَى ٱلْجُهْدِ يُحْمَدِ[٣]

فَلَا ٱلْمَالُ يُنْسِينِي حَيَـائِـي وَعِفَّتـي ... وَلَا وَاقِعَاتُ ٱلدَّهْرِ يَفْلُلْنَ مِبْـرَدِي[٤]

وَأُكْثِـرُ أَهْلِـي مِـنْ عِيَـالٍ سِـوَاهُـمُ ... وَأَطْوِي عَلَى ٱلْمَاءِ ٱلْقَرَاحِ ٱلْمُبَـرَّدِ[٥]

وَإِنِّـي لَمُعْـطٍ مَـا وَجَـدتُ وَقَـائِـلٌ ... لِمُوقِدِ نَارِي لَيْلَـةَ ٱلـرِّيـحِ أَوْقِـدِ[٦]

---

(١) لعمر أبيك: قَسَم. يا شعث: يا شعثاء. نبا: امتنع. الخطوب: الشّدائد.
(٢) صارمان: قاطعان. مذودي: لساني.
(٣) أكُ: أكُنْ. ومعنى العجز: إذا سألنا ذوو الحاجات أعطيناهم وإن كنّا مجدبين.
(٤) واقعات الدهر: مصائبه. يَفْلُلْن: يشققْنَ.
(٥) القراح: الخالص الصِّرف. يقول: أبيتُ جائعًا مكتفيًا بالماء، إيثارًا على نفسي كما أضمّ إلى أهلي غيرهم وأعولهم.
(٦) يفتخر بكرمه وقت الجَدْب.

وَإِنِّي لَقَوَّالٌ لَدَى ٱلْبَثِّ مَرْحَبًا وَأَهْلًا إِذَا مَا جَاءَ مِنْ غَيْرِ مُرْصَدِ[1]
وَإِنِّي لَيَدْعُونِي ٱلنَّدَى فَأُجِيبُهُ وَأَضْرِبُ بَيْضَ ٱلْعَارِضِ ٱلْمُتَوَقِّدِ[2]
وَإِنِّي لَحُلْوٌ تَعْتَرِينِي مَرَارَةٌ وَإِنِّي لَتَرَّاكٌ لِمَا لَمْ أُعَوَّدِ
وَإِنِّي لَمُزْجٍ لِلْمَطِيِّ عَلَى ٱلْوَجَى وَإِنِّي لَتَرَّاكُ ٱلْفِرَاشِ ٱلْمُمَهَّدِ[3]
فَلَا تَعْجَلَنْ يَا قَيْسُ وَٱرْبَعْ فَإِنَّمَا قُصَارَاكَ أَنْ تُلْقَى بِكُلِّ مُهَنَّدِ[4]
حُسَامٌ وَأَرْمَاحٌ بِأَيْدِي أَعِزَّةٍ مَتَى تَرَهُمْ يَا ٱبْنَ ٱلْخَطِيمِ تَبَلَّدِ[5]
لُيُوثٌ لَهَا ٱلْأَشْبَالُ تَحْمِي عَرِينَهَا مَدَاعِيسُ بِٱلْخَطِّيِّ فِي كُلِّ مَشْهَدِ[6]
فَقَدْ لَاقَتِ ٱلْأَوْسُ ٱلْقِتَالَ وَأُطْرِدَتْ وَأَنْتَ لَدَى ٱلْكُنَّاتِ فِي كُلِّ مَطْرَدِ[7]
نَفَتْكُمْ عَنِ ٱلْعَلْيَاءِ أُمٌّ لَئِيمَةٌ وَزَنْدٌ مَتَى تُقْدَحْ بِهِ ٱلنَّارُ يَصْلَدِ[8]

★ ★ ★

وَلَقَدْ تُقَلِّدُنَا ٱلْعَشِيرَةُ أَمْرَهَا وَنَسُودُ يَوْمَ ٱلنَّائِبَاتِ وَنَعْتَلِي
وَتَزُورُ أَبْوَابَ ٱلْمُلُوكِ رِكَابُنَا وَمَتَى نُحَكَّمْ فِي ٱلْبَرِيَّةِ نَعدِلِ
وَنُحَاوِلُ ٱلْأَمْرَ ٱلْمُهِمَّ خِطَابُهُ فِيهِمْ وَنَفْصِلُ كُلَّ أَمْرٍ مُعْضِلِ

★ ★ ★

---

(١) البثّ: الشدّة. مرصَد: توقُّع.
(٢) النّدى: السخاء. ومعنى العجز: إنّي أسبق المطر في العطاء.
(٣) مزجي المطيّ: أسوقها. الوجَى: الحفا.
(٤) قيس: هو قيس بن الخطيم. اربع: قفْ واقتصرْ. قصاراك: آخر أمرك. مهنّد: سيف.
(٥) تبلّد: تتبلّد، تتحيّر.
(٦) ليوث: أسود. مداعيس: طعّانون. الخطّيّ: الرماح المنسوبة إلى الخطّ.
(٧) أطردت: شردت. الكنّات: جمع الكنّة، وهي السَّقيفة.
(٨) يصلد: يصوّت ولا يُخرج نارًا، ويقال للبخيل: صلدت زناده.

بشامة بن حزن

هو شاعرٌ إسلاميّ لم أقع على ترجمة له في المصادر التي بين يديّ على كثرتها، وقصيدته الحماسيّة التالية اقتبستها مع شرحها من شرح ديوان الحماسة للمرزوقي.

١ - إنّا مُحَيُّوكِ يا سَلْمَى فَحَيِّينَا وإن سَقَيْتِ كِرَامَ الناسِ فاسْقِينا

يقول: إنَّا مُسَلِّمُون عَلَيْكِ أَيَّتها المرأة فقابلينا بمثْلِه، وإنْ خَدَمْتِ الكرامَ وَسَقَيْتِهِمْ فَأَجْرِينا مُجْرَاهُم فإنّا منهم. والأصل في التحية أن يقالَ حَيَّاكَ اللهُ، ثم اسْتُعْمِلَ في غيرِهِ من الدُّعاءِ عند اللِّقاء. وأما قولُه:

ولَكُلُّ ما نالَ الفَتَى قد نِلْتُهُ إلا التَّحيهْ

فالمراد به تحيّة المُلُوكِ خَاصَّةً، وهو قولُهم: أَبَيْتَ اللَّعْنَ! وقيل في سَقَيْتِ إنَّ معناهُ: إن دَعَوْتِ لأماثِلِ الناس بالسُّقْيَا فادْعِي لنا أَيْضاً. والأشْهَرُ في الدُّعاءِ أن يُقال فيه سَقَّيْتُ فُلاَناً فيُثَقَّل، والحجة في التخفيف قول أبي ذؤيب:

سَقَيتُ به دارَها إذ نأت وصدَّقت الخَالَ فيه الأنُوحا

وعلى هذا يكونُ في الكلامِ إضمارٌ، كأنه قال: وإن سَقَيْتِ بِظَهْرِ الغَيْبِ الكِرَامَ

بالدُّعاء عند ذِكْرهم فافعلى بنا مِثْلَهُ، وقُولِي سَقَاكم الله. وقد فَصَل بعضُهم بين سَقَيْتُ وأَسْقَيْتُ بأن قال: أسقيتُهُ: جَعَلْتُ له سُقْيًا يَفعل بها ما شاء، وسقَيته: أعطيته ماءً لفيه. ومثلُه كَسَوْتُهُ وأَكْسَيْتُهُ، لأن معنى كَسَوْتُهُ أَلبَسْتُهُ، وأَكْسَيْتُه جَعَلْتُ لَهُ كِسْوَةً، وبعضُهم يجعلهما سواءً، ويحتجُّ ببيت لبيد:

سَقَى قَـوْمِـي بَنِـي مَجْـدٍ وأَسْقَـى نُمَيْـرًا والقبـائـلَ مـن هِـلاَلِ

وإذا فُصِلَ بينهما في البيت لم يختلّ به لفظًا ولا معنًى، كما أنه إذا سُوِّيَ بينهما لم يختلّ معنًى ولا لفظا، فكأنه لا حُجَّة فيه لواحدٍ من القَوْلَيْنِ. والقَصْدُ في الدعاءِ بالسُّقْيَا إلى أن يُمِدَّ اللهُ المدعُوَّ له بما يزيد في نمائِه ونَضارته. ألا تَرَى الآخرَ قال لما دَعا على ما تَسَخَّطَـهُ:

إذا سَقَى اللهُ أرضاً صَوْبَ غـادِيَـةٍ فلا سَقَـاهُـنَّ إلا النـارَ تَضْطَـرِمُ

فذكر ما يُحرِق ويَستأصِل.

٢ - وإنْ دَعَوْتِ إلَـى جُلَّـى ومَكْـرُمَـةٍ يوْمًا سَرَاةَ كِرَامِ النَّاسِ فـادْعِينَـا

جُلَّى فُعْلَى، أجراها مجرى الأسماء ويُرادُ بها جليلةٌ. كما يُرادُ بأفْعَلَ فاعِلٌ وفعيلٌ، نحو قولِه تعالى: ﴿وَهوَ أهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، أي هَيِّن؛ وكما قال:

فتلكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فيها بأوْحَـدِ

أي بواحدٍ؛ وكقولك: الله أكبر، تريدُ كبير. يقول: إنْ أشَدْتِ بذكر خيار الناس بجليلةٍ نابَتْ، أو مَكْرُمَةٍ عَرَضَتْ وسنَحَتْ، فأشيدي بذكرنا أيضاً. وهـذا

الكلام ظاهره استعطافٌ لها، والقصدُ به التوصُّلُ إلى بيانِ شرفه واستحقاقُ ما يستحقُّه الأفاضل الأشراف، والأماثل الكرام. ولا سَقْيَ ثَمَّ ولا تحيَّةَ ولا دُعاءَ ولا مَغَاثةَ. ألا ترى كيف اشتغل بمقصوده مِن الافتخار فيما يتلو هذا البيت. وهم كما يتخلصون من التّشبيبات وغيرِها إلى أغراضهم على اختلافها فإنهم قد يتوصّلون بمبادئ كلامهم إلى أمثالها، فتقلّ المؤونة، وتخفّ الكُلْفة. ولهذا نظائرُ وأشباهٌ تجيء فيما بعد. والسَّرَاة في الناس، والشَّراة بالشين معجمةً في المال والخيْلِ. وفي حديث أُمّ زرع: «فَنَكَحْتُ بعدَهُ رَجُلاً سَرِيًّا، رَكِبَ شَرِيًّا، وأخذ خَطِّيًّا، وأرَاحَ عَلَيَّ نَعَمًا ثَرِيًّا». والجُلَّى بالألف واللام: تأنيث الأجَلّ، كما يقال الأكبر والكُبرى، وكما قيل السّبْعُ الطُّوَل جمع الطُّولَى. ولا يُحذف الألف واللام منه حينئذ، لأنَّ أصْلَه يكونُ أفعَلَ الذي يَتمُّ بمِنْ. ويقال لكلٍّ ما عَلَا شيئاً: جَلَّلَهُ، ومنه الجَلاَلة.

٣ - إنَّا بَنِي نَهْشَلٍ لا نَدَّعِي لِأَبٍ عَنْهُ وَلاَ هُوَ بالأبْنَاءِ يَشْرِينا

نَدَّعِي: نَفْتَعِلُ من الدّعْوَة. وقوله «عنه» تَعَلَّقَ به. ويقال ادَّعى فلانٌ في بني هاشِمٍ، إذا انتسبَ إليهم؛ وادّعى عَنْهم، إذا عَدَل بنسبِهِ عنهم. وهذا كما يقال: رَغِبْتُ في كَذَا ورَغِبْتُ عن كذا. وقوله: «لأبٍ» أي من أجْلِ أبٍ لمكان أبٍ وانتصاب «بني» على إضمار فِعل، كأنه قال: أَذْكر بني نَهْشَل. وهذا على الاختصاص والمَدْح. وخبر إنّ «لا نَدَّعِي». ولو رَفَعَ فقال: بنو نَهْشَلٍ، على أن يكون خبر إنّ لكان لا نَدَّعِي في موضِع الحَال. والفَصْل بين أن يكونَ اختصاصًا وبين أن يكون خَبَرًا صُرَاحًا: هو أنّه لو جَعَلَهُ خَبرًا لَكَانَ قَصدُه إلى تعريف نفسِه

عند المخاطَبِ، وكان لا يَخْلُو فِعْلُهُ لِذلك من خُمُولٍ فيهم، أو جَهْلٍ من المخاطَبِ بشأنهم. فإذا جُعِل اختصاصاً فقد أَمِنَ هو الأمرين جميعا. فقال مفتخرًا: إنَّا نَذْكر من لا يخفى شأنُه، لا نَفْعَلُ كذا وكذا. وإنّما قُلتُ خبرًا صُرَاحًا، لأنَّ لفظ الخَبر قد يُستعار لمعنى الاختصاص، لكنه يُسْتَدَلُّ على المُرَادِ منه بقرائنهِ؛ على هذا قولُه:

أَنَا أَبُو النَّجْم وشِعْرِي شِعْـرِي

ومعنى البيت: إنا لا نَرْغَبُ عن أبينا فننتَسِبَ إلى غيره، وهو لا يَرْغَبُ عنا فيتبنَّى غيرَنا ويبيعَنا به، لأنه قد رَضِيَ كلٌّ منا بصاحبه، عِلْماً بأن الاختيار لا يَعْدُوه لو خُيِّرَ فاختار. ويقال: شَرَيْتُ الشيءَ بمعنى بِعْتُهُ واشتريتُه جميعاً، ومنه الشَّرْوَى، وهو المِثْلُ.

٤ ـ إنْ تُبْتَدَرْ غَـايـةٌ يَـوْمًـا لمكْـرُمَـةٍ   تَلْـقَ الســوابــقَ مِنَّــا والمُصَلِّينـا

يقال: بادَرْتُهُ مكان كذا وكـذا، وإلى مكانِ كذا. قال:

فبادَرَهَا وَلَجاتِ الخَمَرْ

وكذلك يقال: ابتدَرنَا الغَايَةَ وإلى الغَايَةِ. وقولُه: «لمكرمةٍ» أي لاكتسابِ مكرمةٍ. ويجوز أن يكون اللامُ مُضِيفةً للغاية إلى المَكْرُمَةِ، كأنّه يريدُ تَسَابُقَهُم إلى أَقْصاها. يَقُولُ: إن تُسْتَبَقْ نهايَةُ مَجْدٍ أو غايَةُ مكرمةٍ تَرَ السابقينَ مِنّا والتَّالِينَ أيضا مِنَّا. وإنّما قال «المصَلِّين ولم يقل المُصَلِّيَات مَعَ السَّوَابق، لأنّ قَصْده إلى الآدميّين، وإن كان استعارَهُما من صفات الخيل. ويجوز أن يكون أخرجَ السابقَ لانقطاعِهِ عن الموصوف في أكثر الأحوالِ، ولنيابته عن المُجَلِّي وهو اسم الأوّل منهـا إلى بابِ

الأسماء فَجَمَعه على السَّوابق، كما يقال كاهِلٌ وكواهلُ، وغاربٌ وغواربُ. والمُصَلِّي هو الذي يتلو السابق فيكون رَأْسُه عند صَلَاهُ. والصَّلَوان : العظمان الناتئان من جانبي العَجُز. وقال الدُّرَيدي: هو العظم الذي فيه مَغْرِز عَجْبِ الذَّنَب. وقال بعض أهل اللغة: هما عِرْقان في موضع الرِّدفِ.

٥ ـ ولَيْسَ يَهْلِكُ مِنَّا سَيِّدٌ أَبَدًا   إلّا افتَلَيْنَا غُلَامًا سَيِّدًا فينا

نَبّه بهذا الكلام على أنّ مَن يستحق السيادة فيهم يكثُر ولا يقلُّ، فمتى دَرَجَ منهم رئيسٌ ترشَّح لسدّ مكانِهِ واحدٌ. وهذا مثْلُ قولِه:

وإنِّي من القوم الذين هُمُ هُمُ   إذا مات منهم سيِّدٌ قام صاحِبُه

والافتلاء الافتطام والأخْذُ عن الأمر، ومنه الفَلُوّ. والمعنى هنا الترشيح والتهيئة والصرفُ عما عليه إلى الرِّياسة. و« أبداً » في المستقبل بمنزلة قَطُّ في المُضِيّ. والقصدُ أنهم كلَّ وقتٍ على ذلك، فلا يحتاجون إلى الاستعانة بالأجانب دون الأقارب. والأبَدُ الدَّهر، وقيل سُمّيت الوَحْشُ أوابِد لأنها تُعَمَّر على الدَّهرِ، حتى لا تموتُ إلا بآفة. وأن يكون من التأبّد التوحُّش أحسَنُ، وإن أمكن رَدُّ الكلِّ إلى أصلٍ واحد.

٦ ـ إنَّا لنُرْخِصُ يومَ الرَّوْعِ أنْفُسَنَا   وَلَوْ نُسَامُ بها في الأَمْنِ أُغْلِينَا

« أغلينا » الألف للإطلاق، والنون ضمير الأنفُس، ومعنى أُغلينَ وُجِدَتْ غاليةً أو جُعِلَتْ غاليةً. وهو هكذا أجْوَد، وليس يُريد أنهم مع الغلاءِ يمكّنون منها، بل المرادُ قَطْعُ المَقْدُرَةِ عنها. ومثْل هذا :

نُعَـرِّضُ للسُّيـوفِ بكـلِّ ثَغْـرٍ   خُـدُوداً لا تُعَـرَّضُ للسِّبَـاب

فيقول: نَبتذل أنفسَنا في الحروبِ ولا نصونُها، ولو عُرِضَ علينا إذَالتُها في غيرها لامتَنَعْنا. وهذا لحِرْصِهِمْ على تخليد الذِّكر الجميل، والأبانة عن مَحَلّ النفس في الشجاعةِ. والرُّخْصُ في السِّعر: سُهولتُه ولِينُه، وهو من قولهم فيما أظن: امرأةٌ رَخْصةٌ إذا كانت ناعمةً. وقولُه: «ولو نُسامُ بها» أي نُحمَل على أن نَسومَ بها. ويقالُ سامَ بسلعته كذا وكذا، واستامَ أيضاً، وأَغْلَى السَّوْمَ والسِّيمَةُ. وأَسَمْتُهُ أنا، أي حَمَلْتُه على أن سامَ. ولا يمتنع أن يكون قولُهم: سُمْته خَسْفا، أصله من ذاك وإن استُعْمِل في المكروه، ومنه قولُه تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ﴾. وفي البيت طِباقٌ بذكر الإرخاص والإغلاء، والرَّوْع والأمن، في موضعين، وهو حسنٌ جيِّد.

٧ ـ بِيضٌ مَفَـارِقُنَـا تَغْلِـي مَـرَاجِلُنَـا   نَـأْسُـو بـأمـوالنـا آثـارَ أَيْـدِينَـا

يُروى: «بِيضٌ معارفنا»، وهي الوجوه. والمراد بذلك نَقاء العِرضِ وانتفاءُ الذّمّ والعيْب. ويقال: امرأةٌ حسنةُ المعارِف، أي الوجْهِ بما يشتمِلُ عليه. وقيل الأنْفُ وما والاهُ. وقيل: الحُسْنُ في الأنف، والمَلَاحةُ في الأسنان. وواحِدُ المعارِفِ مَعْرَفٌ ومَعْرِفٌ، وكأنَّ الوجهَ سُمِّيَ بها لأنّ معرفةَ الأجسام وتمييزها تقعُ بها. والأشهر والأحسن «بِيضٌ مفارقُنا». ويجوز أن يكون أراد ابيضَّت مفارقنا من كثرة ما نقاسي الشدائد. وهذا كما يقال أَمْرٌ يُشِيبُ الذّوائب. وفي القرآن: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَانَ شِيبا﴾. و«تَغْلِي مراجلُنا» أي حروبُنا، كقول الآخر:

تَفُـورُ علينـا قِـدْرُهُـم فَنُـدِيمُهَـا   ونَفْثَـؤُهَـا عَنَّـا إذا حَمْيُهَـا غَلَا

ويجوز أن يكون المراد: ابيضّت مفارقُنا لانحسار الشّعر عنها، باعتيادِنا لُبس المَغافر والبَيْض، وإدماننا إيّاه، ويكون هذا كما قال:

قــد حَصَّتِ البيضـةُ رأسـي فمــا أَطْعَـمُ نَـوْمًــا غَيْــرَ تَـهْجَــاعِ

وتكون المراجِلُ على هذا كنايةً عن الحروب أيضا. ويجوز أن يكون المراد: ابيضّت مفارقنا من كثرة استعمالنا للطّيب، ويكون كقول الآخر:

جَلَا الأَذفَرُ الأحوَى من المِسْكِ فَرْقَـهُ

ويكون على هذا معنى «تغلِي مراجلنا» أي قدورُنا للضّيافة، ويجوز أن يُريدَ: مَشِيبُ الكرام، لا مشيب اللئام. وأنشد ابن الأعرابي في نوادِره:

وشِبْتَ مَشِيبَ العَبْدِ في نُقْرَةِ القَفـا وشَيْبُ كِرامِ النّاسِ فوق المَفـارِقِ

وعلى هذا يُحْمل المراجِلُ على أنّ المُراد بها قدور الضيافة. فأمّا قولُهُ: «نأسو بأموالنا آثَارَ أيدينا» فإنما يريد تَرَفُّعَهم عن القَوَدِ ودَفْعَ أطماع النَّاس عن مُقَاصَّتِهِم، فيداوون جراحاتِهم ببذل الأُرُوشِ والدِّيات. والأَسْوُ: مداواة الجُرْح وإن استعمِل في موضع الإصلاح. قال:

والأُساةُ الشُّفَاةُ للدَّاءِ ذي الرِّيبةِ والمُدْرِكون للأَوْغَـامِ

ويُقال للضّارّ النّافع: يَشُجُّ ويأسُو. ومنه اشتقاق الإسوَة، ويقال الأُسْوَةُ أيضاً. ويُروى أنّ مُصْعبَ بن الزّبير لما انهزَم الناسُ عنه يومَ مَسْكَنَ جعل يُقاتِل ويتمثّل:

وإنَّ الأُولَى بالطَّفِّ من آلِ هَاشِـمٍ تَأَسَّـوا فَسَنُّـوا للكِـرَام التـأَسِّيَــا

وفي البيت مع حُسن المعاني التي بيَّنتُها توازُنٌ في اللفظ مستقيم، وسلامةٌ ممّا يجلب عليه التَّهجِين.

٨ ـ إنِّـي لَمِـنْ مَعْشـرٍ أفْنَـى أوائِلَهُـم قَوْلُ الكُمَاةِ ألاَ أيْنَ المحـامُـونـا

يقاربه قول الخَنْساء:

أَقَلَّتْ مُسَامَاةُ الرِّجَال عَدِيدَنَا

فيقول مفتخرًا إنِّي لمِن قومٍ أهلَكَ أسلافَهُم قولُ الأبطال لَهُمْ ألا أين الذّابّون والمُحَامون؟ فكانوا يتقدّمون ويفنَوْن. والكُمَاةُ: جمع الكمِيّ، وهو من قولهم كَمَى شهادتَه، إذا كَتَمَها؛ لأنَّ الشُّجاع يستغني بالفَعَالِ، عن الدَّعْوَى والمَقَال، فكأنّه يستُر أمره وشأنه لوقت الحاجة، ولأنّه إذا سَكَتَ دَلَّ على صِفَاتِهِ بلاؤُهُ.

٩ ـ لو كانَ في الألْفِ منَّا واحِدٌ فَدَعَـوْا مَنْ فَـارِسٌ خَـالَهُـمْ إيّـاه يَعْنُـونـا

يعني بقَوْلِهِ «فَدَعَوْا» أعلنوا الاستغاثة بيا لَفلان، ومَن فَتًى، وما أشبهه. ويقال خِلْتُهُ أخَالُه خَيْلاً ومَخِيلةً وخَيَلانـاً. وهذا مثل قول طرَفَةَ:

إذا القومُ قالوا من فَتًى خِلْتُ أنّنِي عُنِيتُ فلم أكْسَلْ ولـم أتَبَلَّـدِ

وقد زاد هذا عليه بقوله «لو كان في الألف مِنَّا وَاحِدٌ». لأنّ ذلك قال:

إذا القومُ قالوا من فَتًى، فنصب نفسه مع قومه؟ وهذا جَعَلَهُ مُنضَمًّا مع الكثرة إلى الغرباء. وإنما قال: «مَن فارِسٌ» فَنَكّر، كما قال طَرَفَةُ: «من فتًى» فنكّر. ولم يُعرِّف واحدٌ، منهما، لأنّ السُّؤال بالمنكَّر لشدة إبهامه يكون أشمَلَ لتناوله واحِداً

واحداً لا سيَّما وليس القصد في الاستفهام إلى معهودٍ معين، ولا إلى الجِنْس فيقال: من الفَتَى، ومن الفارس. وفي هذه الطريقة قولُ الآخَر:

إذا القومُ قالوا مَن فتًى لعظيمةٍ ... فَمَا كُلُّهُمْ يُدْعَى ولكنّه الفتى

وبيت بشامة أجْوَد الثلاثة. وقد أحسن الفرزدق كلَّ الإحسان لمّا أشار إلى هذا المعنى فقال:

إذَا الكُمَاةُ تَنحَّوا أَن يَنَالَهُمُ ... فَنَحْنُ بدَعْوَةِ الداعِي عُنِينَا

١٠ـ إذَا الكُمَاةُ تَنحَّوْ أن يَنَالَهُمُ ... حَدُّ الظُّبَاتِ وصلناها بأَيْدِينَا

إنّما قال حدّ الظُّبات ـ وظُبةُ: السّيف حَدُّه ـ لأنّه أراد المضارب بأسْرِها. وكما صَلَحَ أن يُقال أَصَابَتْهُ ظُبَةُ السيفِ صلح أن يُقَالَ: حَدُّ الظُّبَةِ. وقيل: الظبَةُ: طَرَفُ السيف، والشباةُ حَدُّ طَرَفِه. يقولُ: إذا الأبطالُ تباعَدُوا عن المصادمة والمكافحة، مخافة أن ينالَهُم حَدُّ السيوف مَدَدْنا أبْوَاعَنَا إليهم بِها أو وصلناها، وفي هذا المعنى قوله:

إذَا قَصُرَتْ أسْيَافُنَا كان وَصْلُهَا ... خُطَانا إلى أعدائِنَا للتّضاربِ

وقوله «تنحّوا أن ينالَهم» أي تنحوا أن ينالَهم، ومخافةَ أن ينالَهم؛ فلمّا حُذِفَ مِنْ وَصَلَ الفِعْلَ فَعَمِل. وعلى هذا قولهم: تَحَصَّنَ فلانٌ أن يُطْلَبَ، وقول الله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلّوا﴾. وقوله: «وصلناها بأيدينا» أي إذا عَجَزت جعلْنا وُصَلَها أيديَنا. وهذه الأبيات إذا تُؤُمِّلَت فكلٌّ منها غاية يدعُو إلى نفسِه لَفْظاً ومعْنًى.

١١- وَلا تَرَاهُمْ وَإِنْ جَلَّتْ مُصِيبَتُهُمْ مع البُكَاةِ على مَن مَاتَ يَبْكُونا

يصف تعوّدهم للثُّكْل، وإلْفَهُم للمصائب والقتل، وأنَّ قلوبهم قد مَرَنَتْ عليها حتّى قَسَتْ، فلا يبكون مع البكاةِ على من قُتِلَ منهم. ومثله قول عمرو بن كلثوم:

مَعَاذَ الإلٰه أن تَنُوحَ نِسَاؤُنَا على هَالِكٍ أو أن نَصِيحَ من القَتْل

١٢- وَنَرْكَبُ الكُرهَ أَحْيَاناً فَيَفْرُجُهُ عَنَّا الحِفَاظُ وَأَسْيَافٌ تُوَاتِينَا

يجوز أن يكون هذا كما قال الآخر:

فحالَفْنا السُّيوفَ على الدهْرِ

ويجوز أن يكون أراد بالسيوف رجَالاً كأنَّهم السيوف مضاءً ونفاذاً. والأوّل أولَى. وإنما يصِفُ خِطارَهُم بمُهَجهم، وركوبَهم المهالك، ورمْيَهم بأنفسهم المَرَامِيَ المُعْطِبَةَ. فيقول: إذا فعلْنا ذلك في الوقت بعد الوقت، وسَّعَتِ المضايِقَ عَنَّا مُحَافَظَتُنَا على الكرم وصَبْرُنا على الشدائد، واستعمالنا سُيُوفَنَا المطاوِعةَ لنا. ومعنى يفرُجُه: يكشِفه ويوسِّعه. ويقال: فَرَجَ الله غَمَّه وفرَّجه، بالتخفيف والتشديد. ومنه سمِّي ما بين القوائم: الفروج. وإطلاق لفظ الفَرجِ على العَوْرَةِ يجري مجرى الكنايات. وعلى هذا قيل: رجُلٌ فُرَجَةٌ، إذا كان كشَّافاً لأسراره.

★ ★ ★

قيس بن عاصم

هو قيس بن عاصم بن سنان المنقري السعدي التميمي (٠٠٠ - نحو ٢٠ هـ/ ٠٠٠ - نحو ٦٤٠ م)، أحد أمراء العرب الشجعان. كان شاعراً، حرّم على نفسه الخمر، ولمّا أسلم قال عنه النبيّ (ﷺ): «هذا سيّد أهل الوبر»، واستعمله على صدقات قومه. توفّي بالبصرة، فرثاه عبدة بن الطيّب بقوله:

«وما كان قيسٌ مَلْكُهُ مَلْكُ وَاحِدٍ ولكنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهَدّما»

وكان له ٣٣ ولدًا، قال لهم قبيل موته: «يا بنيَّ احفظوا عنّي ثلاثًا، فلا أحد أنصح لكم منّي: إذا أنا متّ فسودوا كباركم ولا تسودوا صغاركم فيحقر الناس كباركم وتهونوا عليهم، وعليكم بحفظ المال، فإنّه منبهة الكريم ويستغنى به عن اللئيم، وإياكم والمسألة فإنّها آخر كسب الرجل».

وفيما يلي بعض المقطوعات الفخريّة من شعره:

وإني لعبد الضيف ما دام ثاويًا

ومن رائع الفخر ما قاله قيس بن عاصم بن سنان بن خالد المنقري، وهو من الشعراء المخضرمين المتقدمين، وكان النبي ﷺ استعمله على صدقات بني سعد.

يقول مفتخراً بجوده وكرمه وإقرائه الضيف، وهو من فريد المعاني[1]:

أيـا ابْنـةَ عبـدِ اللهِ وابنـةَ مـالـكٍ ... ويا ابنةَ ذي البرديْنِ والفـرسِ الوَرْدِ[2]

إذا مـا أصبـتِ الزّادَ فـالتمسي لـه ... أكيلًا فـإنـي لستُ آكلـه وحـدي

قصيًّـا كـريمًـا أو قـريبًـا فـإنـنـي ... أخافُ مذمّاتِ الأحاديثِ مِن بعـدي

وإنـي لعبـدُ الضّيـفِ مـا دامَ ثـاويًـا ... وما مِن خلالي غيرَها شيمـةُ العبـد[3]

★ ★ ★

خطباء حين يقوم قائلهم

ومن جيد فخره يذكر مناقب قومه في الخطابة والبلاغة[4]:

إنّـي امْـرؤٌ لا يعتـري خُلُقـي ... دنسٌ يفنِّـده ولا أفـنُ[5]

مِـن منقـرٍ فـي بيـتِ مكـرمـةٍ ... والأصـلُ ينبـتُ حـولَـه الغصـنُ[6]

خطبـاءُ حيـنَ يقـومُ قـائلُهـم ... بيـضُ الوجـوهِ مصـاقـعٌ لُسـنُ[7]

لا يفطنـون لِعيـبِ جـارِهِـم ... وهـمُ لِحسـنِ جـوارِهـم فطـن

★ ★ ★

---

(١) الكامل في اللغة والأدب ١/٣٤٥.

(٢) البردين، مثنى برد، وهو الثوب. والفرس الورد، الذي له لون الورد.

(٣) غير، هنا، استثناء مقدم. والشيمة: الصفة.

(٤) البيان والتبيين ١/١٢٤ ـ ١٢٥.

(٥) يعتري: يصيب. والأفن: نقص العقل، والخُرق. ويفنده. يظهره.

(٦) منقر، قوم الشاعر.

(٧) مصاقع، جمع مصقع، وهو الحاد اللسان. ومثله اللسن.

سعد بن ناشب

هو سعد بن ناشب بن معاذ بن جعدة المازني التميمي (٠٠٠ ـ نحو ١١٠ هـ/ ٠٠٠ ـ نحو ٧٢٨ م) شاعر من الفتّاك المردة، من أهل البصرة؛ اشتهر في العصر المرواني، وهو صاحب البيت:

إذا هَمَّ ألْقَى بين عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ ... ونَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ العَوَاقِبِ جَانِبا

من أبيات أولها:

سَأَغْسِلُ عَنّي العَارَ بالسيف جالبًا ... عَلَيَّ قَضَاءَ اللهِ ما كان جالبا

وكانت له دار بالبصرة هدمها بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، وقيل هدمها الحجّاج.

ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

ومن أروع الفخر وأشده حماسة، ما قاله سعد بن ناشب التميمي، الشاعر الإسلامي، وكان أصاب دمًا فهدم بلال بن أبي بردة داره بالبصرة ثم أحرقها، فقال هذه الأبيات الحماسية الرائعة[1]:

---

(١) ديوان الحماسة ١/١٥ ـ ١٦. وانظر: زهر الاداب ١/٢١٣.

سأغسلُ عنّي العارَ بالسيفِ جالبًا ... عليَّ قضاءَ اللهِ ما كانَ جالبا[1]

وأذهلُ عن داري وأجعلُ هدمَها ... لعِرضيَ مِن باقي المذَمَّةِ حاجبا[2]

ويصغرُ في عيني تِلادي إذا انْثنتْ ... يميني بإدراكِ الذي كنتُ طالبا[3]

فإن تهدموا بالغدرِ داري فإنّها ... تراثُ كريمٍ لا يُبالي العواقبا

أخي غمراتٍ لا يريدُ على الذي ... يهمُّ به مِن مفظعِ الأمرِ صاحبا[4]

إذا همَّ لم تُردعْ عزيمةُ همِّهِ ... ولم يأتِ ما يأتي مِن الأمرِ هائبا[5]

فيا لَرِزامٍ رشّحوا بي مقدّما ... إلى الموتِ خوّاضًا إليه الكتائبا[6]

إذا همَّ ألقى بينَ عينيْهِ عزمه ... ونكَّبَ عن ذكرِ العواقبِ جانبا[7]

ولم يستشرْ في رأيهِ غيرَ نفسهِ ... ولم يرض إلّا قائمَ السيفِ صاحبا

★ ★ ★

---

(١) العار: العيب والسوء.

(٢) أذهل عن داري: أتركها. والمذلة: الذم والعيب.

(٣) التلاد: المال القديم المتوارث.

(٤) الغمرات: الشدائد.

(٥) تردع: تزدجر. وهائباً: خائفاً.

(٦) رزام: حي من تميم، نسبوا إلى جدهم رزام بن مالك بن حنظلة، واللام في (رازم) للاستغاثة.

(٧) نكب: انحرف.

القسم الثالث

الفخر والحماسة في العصر العباسيّ

(٧٥٠م - ١٢٥٨م)

الفخر والحماسة في العصر العبّاسي

١ ـ الفخر

لقد رافق الفخر الشعر العربي في سائر العصور الأدبيّة، فامتزج في العهد الإسلاميّ والأمويّ بفكرة الفتوح، ثم أطلّ العهد العبّاسي، فشهد انقلابًا عظيمًا في السياسة والاجتماع والثقافة. وجرى تمازج ضخم بين العرب والأعاجم، فحصل احتكاك بين العقل العربي من جهة، وبين العقل اليوناني، والفارسي، والهندي، ولاحقًا التركي، أي بين الحضارة العربية الناشئة وبين حضارة الشرق القديم العريقة. ونشأت نتيجةً لذلك نزعات عنصرية عديدة كان أهمّها: «الشعوبيّة». وقد تعددت موضوعات الفخر بتعدّد النزعات والأهواء، واختلفت باختلاف التقاليد والعادات في الدين والأخلاق والمأكل والملبس والمشرب وسائر وجوه الحياة.

والبارز في هذا العصر انتقال الفلسفة اليونانية الى الفكر العربي نتيجة الترجمة التي انتشرت انتشارًا واسعًا، واحتكاك العقل اليوناني بالعقل العربي، فإذا بالعقل العربي يحار بين القديم الذي ألفه وبين الجديد الذي صدمه، فيروح يوفّق بينهما تارة، ثم يعود ليوفّق بين دينه وبين الفلسفة اليونانيّة التي سحرته. وإذا الجو الفكري جو صراع فلسفي عقائدي مذهبي، وإذا هناك موضوعات جديدة غير مألوفة في كافة ميادين المعرفة وإذا بالشعر يواكب هذا الانقلاب فيؤثر ويتأثر في موضوعاته وأساليبه. والذي يعنينا، من هذه الزاوية، ما طرأ من تغيير على

موضوعات الفخر والحماسة التي عرفناها في العصور السّابقة، فقد أصبحت موضوعات الفخر تدور حول العقل والحكمة وصواب الرأي، وحول الانفلات والتحرّر، والشجاعة الحكيمة، والحزم في الأمور، والحضارة العريقة، والرقيّ، والشاعريّة الخلاّقة، والنبوغ، والفنّ، والوقار وغيرها من الأمور المعنويّة التي لم يألفها الفكر العربي من قبل - وإذا عثرنا، في بعض الأحيان، على شعر يشبه الفخر القديم في توجّهاته، فإنّ ذلك يظل محدودًا.

وكان من نتيجة الصراع بين القديم والجديد، أن نشأت الشعوبيّة بألوانها المختلفة، السياسيّة، الأدبيّة، الدينيّة، الحضاريّة، التاريخيّة، وكان لها شعراؤها وهم جميعهم من غير العرب، وكان على رأسهم بشار بن برد، وهو من أصل غير عربيّ، وكان فيّاض القريحة، يتدفّق كلامه متينًا سلسًا على موسيقى شعرية لا تضاهيها شهرة، وهو يفخر بعقله وثقافته الواسعة، كما يفخر بوقاره ورزانته:

يا سَلْمَ إنّي امروءٌ يوقّرني   حِلمي إذا القومُ في الخنا وَثَبُوا

أمّا قومه فخير قوم، في الشّجاعة والعزّة والشّرف، ورجاحة العقل:

وتجمعُ دعوتي آثار قَومي   همُ الأُسدُ الخوادرُ تحت غابِ
ولاةُ العزّ والشرفِ المعلّى   يردّونَ الفضولَ على المصابِ

هؤلاء هم قوم الشاعر، وهذا هو مشهد من مشاهد الفخر التي دعت إليه الحضارة الجديدة، وكم في هذا الفخر من التعقّل والرّصانة وجودة التفكير. أمّا شعوبيّته، فهي ميدان واسع من ميادين فخره:

هَلْ مِنْ رسولٍ مُخبرٍ   عنّي جميعَ العربِ
بأنّني ذو حسبٍ   عالٍ على ذي الحسبِ
جدّي الذي أسمو به   كسرى وساسانُ أبي

إنّ في هذه القصيدة استعلاء شديدًا على العرب ومفاخرة بقومه الفرس، وهذا شيء جديد في تاريخ الفخر العربي شجّع على التعرّض للعرب والحطّ من شأنهم والتّطاول على كرامتهم. وقد سار أبو نؤاس على منهج بشّار ولكنّه اتّخذ الخمرة وسيلة للتعبير عن نزعته الشعوبيّة.

إلى جانب شعراء الشعوبيّة، نشأ تيّار من الشّعراء عمل على إحياء القديم، وأعاد الشعر الى أبواب البلاطات وإلى ارستقراطيته القديمة وصلابته ومتانة أساليبه، دون أن يهمل ما قدّمته الثقافة الجديدة، ودون أن يتغاضى عن الانقلاب الحاصل في حضارة العصر الجديد. وقد اشتهر في هذه المرحلة أبو تمّام والبحتري وابن الرومي الذي تميّز شعرهم بالتفخيم والصنعة والإتقان. وكان أبو تمّام أكثرهم فخرًا بعبقريّته وبصبره وبمضائه في اقتحام الأمور الصعاب، واشدّهم إعجابًا بقبيلته طيّئ وبما تمتاز به من حلم وشجاعة وعراقة مجد وكرم.

أمّا البحتري فقد تأثر بأبي تمّام وأخذ عنه الصناعة الشعريّة واهتمامه بالبديع والزخرفة، وكان مثله من أب طائيّ، أما أمّه فكانت من بني شيبان. ونشأ نشأة غريبة إذ جمع صفاء البداوة إلى تعقيد الحضارة. وقد أودع فخره بقومه، إعجابه بنفسه، فعدّد مناقب قومه، وشرفهم القديم، وقارن حضارة أبناء اليمن القديمة بخشونة عرب الشّمال وسوء حالهم وبؤس تاريخهم. وابن الرّومي لجأ إلى الفخر، فكان عنده وسيلة يحارب بها سوء نظر النّاس إليه، وكان فخره انتفاضة عصبيّة في وجه الظلم الاجتماعي، ولؤم النّاس، كما كان شعره فخرًا بنفسه وبشعره وبلاغته:

شِعْـريَ شعـرٌ إذا تـأمّلَـهُ الإنسَـ ـانُ ذو العقـلِ والحِجَـى عَبَـدَهْ

أمّا شاعر الفخر الأوّل في العصر العباسي وفي جميع العصور الأدبيّة، فهو أبو الطيّب المتنبي الذي أطلّ على مسرح الأدب وكانت الأمبراطوريّة الضخمة قد تمزّقت وأصبحت نهبًا لكلّ طامح وطامع، وإذا الدّولة المترامية الأطراف، تصبح دويلات، أشهرها دولة بني بويه في فارس، ودولة الحمدانيينّ في الشّام، ودولة

الفاطميّين في مصر والمغرب، وقد تنافست تلك الدويلات في تشجيع العلم والأدب. أمّا شاعرنا أبو الطيّب، فكانت عدّته في مجال الفخر مكتملة، فمن نسب عريق ينتمي إليه، إلى شخصيّة بلغت ذروة الكمال الإنسانيّ، وقد كان باب الفخر عزيزاً على قلبه، فراح يجول فيه جولات انتهت به إلى أعلى قمم المجد. وقد اقتصر فخره على ذاته، ولم يعد إلى قومه، يعدّد أمجادهم ويشيد بمآثرهم كما فعل غيره من الشعراء، فهو يفتخر بشاعريته التي تنقاد إليها شوارد الكلمات، فينبري الدّهر مردّدًا لأشعاره:

وما الدهرِ إلاّ من رواة قصائدي إذا قلت شعرًا أصبح الدهر منشداً

أو يقول مفتخرًا بعبقريته في علوم اللغة:

أنامُ مِلءَ جفوني عن شواردها ويَسْهرُ الخَلْقُ جَرَّاها ويختصم.

والفخر في شعر المتنبّي صفة مسيطرة، وموضوع غالب. فذاته تزخر بكلّ ما في الوجود من قوّة وتفوح بكلّ استعلاء وعزّة. ولا عجب في ذلك فإنّ له من قوّة البيان وروعة الفصاحة وسحر المعاني ما يجعل العميان يبصرون والصمّ يسمعون:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعتْ كلماتي مَنْ به صَمَمُ

أمّا شعره فإنّه كالنور الساطع يصفع أبصار المتطاولين ويفضح الشعراء المنافسين:

إنَّ هذا الشعرَ في الشعرِ مَلَكْ سارَ فهو الشمسُ والدنيا فَلَكْ

والشاعر يفتخر بشموخه وأنفته حتّى لتأبى نفسه أن تسكن اللحم والعظم:

إنّي لَمِنْ قومٍ كأنّ نفوسهمْ بها أَنَفٌ أن تسكن اللَّحمَ والعَظْما

أو يفتخر بعزّة نفسه على طريقة عنترة الفوارس في طلب المجد والترفّع عن الدّنايا.

فَاْطلبِ العزَّ في لظىً ودعِ الذُّلَّ ولو كانَ في جنانِ الخلودِ

وهو، إلى ذلك، وفيّ، صادق، ودود، تملأ قلبه المشاعر الإنسانيّة السّامية:

خُلِقتُ ألوفًا لو رجعْتُ إلى الصِّبا لَفَارَقْتُ شَيْبي موجَعَ القلبِ باكيا

ويفخر ببطولته التي تتحدّى الزّمن، فترتدي الحديد قميصًا، وتفترش صهوة الجواد:

وإن عمرتُ جعلتُ الحربَ والدةً والسَّمْهريَّ أخًا والمشرفيَّ أبا

ثم يفخر بكماله، فإذا هو خير من حملته قدمان، وإذا هو منزّه عن العيوب قريب من الكمال:

ما أبعدَ العيبَ والنقصانَ عن شرفي أنا الثّريّا، وذانِ الشيبُ والهَرَمُ
سيعلمُ الجمعُ ممّنْ ضمّ مجلسنُا بأنّني خير من تسعى به قدمُ

ويجعل ذاته محور فخره، فيقول، وقد ضاق عليه الزمان والمكان، وهانت في عينه عروش الملوك:

أيَّ محلٍّ أرتقي أيَّ عظيمٍ أتَّقي
وكلُّ ما خلق اللهُ م وما لم يخلقِ
محتقرٌ في همّتي كشعرةٍ في مَفْرِقي

وقد يصل به الغرور إلى احتقار الغير وتقديس الذّات حين يقول:

إنْ أكُنْ مُعْجَبًا فَعُجبُ عجيبٍ لمْ يجدْ فوق نفسِهِ من مَزيدِ

والذي نلاحظه أنّ فخره في مرحلة الشبّاب كان أقرب إلى الهوس والغرور والثورة والتعالي على الآخرين، ولكنّه، مع بداية طور الكهولة، أصبح أكثر رصانة وصدقًا، فإذا بشعره يغدو صورة صادقة عن نفس بشريّة ذاقت نشوة الأمل، وألم الخيبة، ومرارة اليأس، واندفاع الثورة.

إلى جانب المتنبّي نشأ أبو فراس الحمداني، فكان الفخر من الأبواب التي عالجها في كلّ أشعاره. وكان له من عزّ قبيلته تغلب، ومكانة آبائه، وشرف انتمائه إلى أسرة من سلالة الأمراء، ما يدعوه إلى الفخر والحماسة، وهو الفارس الشجاع والمقاتل الشهير. وهو يعتزّ بانتمائه إلى آل حمدان حين يقول:

فلم يُخْلق بنو حمدان إلاّ   لمجدٍ أو لبأسٍ أو لجودِ

أو يقول مفاخرًا على سائر القبائل العربيّة:

وقد علمتْ ربيعةُ بل نزارٌ   بأنّا الرأسُ والنّاسُ الذّنابى

ولا يلبث أن يؤكّد بأنّ مجدهم قديم توارثه الأحفاد عن الأجداد:

نشيد كما شادوا، ونبني كما بنوا   لنا شرفٌ ماضٍ وآخرُ غابرُ

إلى جانب فخره بقومه، يفتخر الشاعر بذاته: فهو شجاع، أنوف، جواد، مترفّع عن الدّنايا، بعيد عن الذّلّ، شديد العزم، صبور على الشدائد، حتى في أحلك أيّامه في الأسر حين يقول:

وكيفَ ينتصفُ الأعداءُ مِن رجُلٍ   العزُّ أوّلُهُ والمجدُ آخرهُ

أمّا الشّريف الرضيّ فهو من أشهر شعراء الفخر عند العرب، وقد بلغ في فخره درجة بعيدة، ولا سيما في مدح قومه، أليس هو القائل؟

هل عرّقتْ فيكم كفاطمةٍ   أمْ هلْ لكمْ كمحمدٍ جدٌّ؟

وله قصيدة كاملة في الفخر مطلعها:

لغيـر العلى منّـي القلـى والتجنّـبُ ولولا العُلى ما كنت في الحبّ أرغبُ

وقد شاء الشّريف الرّضي أن يقلّد المتنبي، فجاراه في نفحته الملحميّة ووثباته وترفّعه عن الدّنايا، ولكنه ظلّ مقصّرًا عنه في قوّة الانطلاق وعمق الموهبة.

ومن الشعراء الذين اشتهروا بالفخر، في العصر العبّاسي، أبو العلاء المعرّي فيلسوف الشعراء، وله قصائد عديدة أبرزها قصيدته اللاميّة ومطلعها:

ألاَ في سبيلِ المجدِ ما أنـا فـاعـلُ عفـافٌ وإقـدامٌ وحـزمٌ ونـائِـلُ

وفيها يفخر بنفسه وبقومه، فإذا هو أديب شجاع، كريم، ذكيّ، وإذا قومه أغنياء اشتهروا بالمعروف، واشتهروا بالعلم والأدب.

ومن شعراء العصر العبّاسي الذين طرقوا باب الفخر في شعرهم، الطغرائي الذي بلغت قصيدته المعروفة بلامية العجم شهرة واسعة وحفظها الدّارسون قديمًا وحديثًا ومطلعها:

إصالةُ الرأي صـانتْني عـن الخَطَـلِ وحِليةُ الفَضْلِ زَانَتْني لـدى العَطَـلِ
مجدي أخيـرًا ومجـدي أولًا شَـرَعٌ والشمسُ رَأْدُ الضُّحى كالشمس في الطَّفَلِ

وهذه القصيدة هي نموذج رائع في الفخر وعزّة النفس، وقد ضمّنها الشاعر ثورة نفسه، وسجّل فيها أمجاده، وسكب فيها القيم المعنويّة التي يؤمن بها، وذلك بأسلوب شعري مبدع.

٢ ـ الحماسة

لقد كثرت الحروب في العصر العبّاسي وشملت الداخل والخارج. ففي الداخل قامت الفتن والثّورات منها الثورة الراوندية التي نشأت إثر مقتل أبي مسلم

الخراساني، ثم قامت حركة الزندقة في العراق وفارس، وكثرت حركات الشيّعة وكان أهمّها حركة ابن طباطبا وغيرها من الحركات السياسيّة والدينيّة التي قامت بوجه الأمن والسّلام. أمّا في الخارج فقد ظلّت الفتن والحروب بين المسلمين والرّوم. وجرت نتيجة لذلك مواقع تشبه أيّام الجاهلية نذكر منها واقعة «أرشق» «للأفشين» قائد المعتصم على «بابك الخرميّ» قائد الروم، وقد تغنّى بها أبو تمّام وأشاد بالأفشين. كذلك وقعت واقعة «عمّورية» وكان النصر فيها للمعتصم على ملك الروم «تيوفيل». وكانت هذه المواقع مادة خصبة للشعر الحماسي، فهبّ الشّعراء وعلى رأسهم أبو تمّام يصفون تعبئة الجيوش وزحفها. والأسلحة، والخيول، والأساطيل، والنصر، وفرار العدوّ وما إلى ذلك. وقد تتبّع الشعراء أساليب القدامى في هذا الباب، واهتمّوا أكثر فأكثر بالصياغة اللفظية والصور البيانيّة. ومن أروع ما قال أبو تمّام في هذا الباب، قصيدة لاميّة نظمها في انتصار الأفشين الذي جمع جيشًا قويًّا من الترك والفرس فاخضع الناقمين على بني العبّاس. وقد راح الشّاعر يصف الموقعة فيذكر حركة الجيشين وقد استبسلا استبسالًا عظيمًا، وإذا به يرسم لوحة للمعركة فيها من الخيال الشعري، والموسيقى التصويرية والمقارنات اللفظيّة والمعنويّة، ما يجعل أبا تمّام من كبار شعراء الحماسة في الأدب العربي، حيث يقول:

يا يوم أرشقَ كنتَ رشقَ مَنِيَّةٍ — للخرَّمِيَّةِ، صائبَ الآجالِ

أسرى بنو الإسلام فيه وأدلجوا — بقلوب أُسْدٍ في صدور رجالِ

يومٌ أضاء به الزمان وَفَتَّحتْ — فيه الأسِنَّةُ زهرةَ الآمالِ

نزلت ملائكة السماء عليهمُ — لما تداعى المسلمونَ: نَزَالِ

وهكذا نجد أنفسنا أمام قصيدة قد تدرّعت ألفاظها، وتتابعت أبياتها، جيوشًا جيوشًا، وكأنّنا أمام حرب مشخّصة أحسن تشخيص.

ومن المعارك التي خلّدها أبو تمّام في شعره، موقعة عمّوريّة، حيث زحف أمبراطور الروم قاصدًا بلاد العرب، وفتح «زبطرة» وأعمل السّيف في رقاب أهلها، فنهض الخليفة المعتصم إلى مهاجمة عمّوريّة، ولم يلتفت إلى نصيحة المنجّمين الذين نهوه عن شنّ الهجوم قبل إدراك التين والعنب. فزحف جيش المعتصم وحاصر القلعة حصارًا شديدًا مدة خمسة عشر يومًا، ورمى أسوارها بالمجانيق حتّى سقطت القلعة الحصينة بأيدي المسلمين. وقد التهبت حماسة الشّاعر، وقد كان رفيق المعتصم في حملته، ولا سيما حين أضرم الفاتحون النّار في القلعة طوال الليل، فإذا القلعة في نهار من اللهب والأنوار، وإذا القارئ أمام شاعر يمزج الحقيقة بالخيال، فيكثر من الطّباق والجناس ومن الألفاظ الشديدة الوقع حتّى تغدو التعابير والألفاظ وكأنّها سيوف ورماح تتقارع.

السيفُ أَصدقُ إنباءً من الكتبِ ... في حدّهِ الحَدُّ بين الجدِّ واللعبِ

والعلمُ في شُهُب الأرماحِ لامعةً ... بين الخميسين لا في السبعة الشُّهُبِ

لقد تركْتَ أميرَ المؤمنين بها ... للنّار يومًا ذليلَ الصّخرِ والخَشَبِ

تدبيرُ معتصمٍ باللهِ، منتقمٍ ... للهِ، مرتقبٍ في اللهِ، مُرْتَهِبِ

لو لمْ يقدْ جحفلًا يومَ الوغى لغدا ... من نفسِهِ وحدها في جحفلٍ لَجِبِ

هكذا يتجلّى أبو تمّام رجل حماسة واندفاع، ينظم شعره ولا يخفي انفعاله، يهوى الصور المركّبة، والعبارات المحبوكة الحافلة بالموسيقى، والكلمات الهدّارة بكلّ غريب صاعق.

وإذا كانت الأقدار شاءت أن يخلّد أبو تمام مواقع المعتصم مع الروم، فقد شاءت، كذلك، أن يكون المتنبّي شاعر سيف الدولة، ليسجّل له بطولاته بملاحم كلماتها من نار. ومن أبرز تلك المعارك معركة خرشنة، ومعركة الحدث الحمراء، ومعركة الدرّب، وقد سجّلها المتنبّي في شعره أروع تسجيل. أمّا موقعة

خرشنة فقد جرت بين سيف الدولة والدمستق، وقد بادر سيف الدولة الى الهجوم بقسم قليل من جيشه، فحسب «الدمستق» أنّ جيش العرب قليل العدد، فهاجمه هجومًا شديدًا بكل جيشه، ولكنْ سرعان ما انتفضت الأرض عن رجال واسلحة ملأت الآفاق، وإذا بالروم ينهزمون شرّ هزيمةً. وراح المتنبّي يصف تلك المعركة ويتتبّع حركات الزحف، وانكسار الرّوم وبسالة الجيش العربيّ فإذا النصر للأمير العربي:

والمشرفيّةُ لا زالتْ مُشَرَّفةً دواءَ كلِّ كريم أو هيَ الوجعُ
بالجيش تمتنع السّادات كلّهمُ والجيش بابنِ أبي الهيجاء يمتنعُ

أمّا المعركة التي خلّدها المتنبّي بأروع أشعاره كانت معركة الحدث الحمراء، والتي دامت من طلوع الشمس حتّى غروبها وأسفرت عن فوز الجيش العربيّ، فتناول المتنبّي ذلك الفوز ونظم فيه ميميّته الشهيرة:

على قَدْرِ أهلِ العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدْرِ الكرامِ المكارمُ

فقد جعل الشّاعر قلعة الحدث حمراء من دم الأعادي، وجعل سيف الدولة يبنيها في حومة الوغى والرّوم يهاجمون بجيش جرّار تجمّع فيها كلّ لِسان، يغطّيه الحديد، وتتصاعد أصواته عالية في الفضاء:

أتوك يجرّون الحديد كأنّما سَرَوا بجيادٍ ما لهنّ قوائمُ
خميسٌ بشرقِ الأرضِ والغربِ زَحْفُهُ وفي أُذُنِ الجوزاء منهُ زمازمُ
تجمّع فيه كلّ لِسْنٍ وأُمّةٍ فما يُفهِمُ الحدّاثَ إلا التراجِمُ

والتحم الجيشان، ودارت الدوائر على جيش الرّوم، ووقف سيف الدّولة مبتسمًا، وقد استغنى عن السّيف والرمح:

وقفتَ وما في الموتِ شَكٌّ لـواقـفٍ   كأنّك في جفنِ الرّدى وهـو نـائـمُ
تَمُـرُّ بـكَ الأبطـالُ كلمـى هـزيمـةً   وَوَجْهُـكَ وَضّـاحُ وثغـرك بـاسـمُ

وتنتهي المعركة بقصيدة ليست دون المعركة هولًا وخلودًا.

وهكذا فقد اختتم المتنبّي كلّ موقعة خاضها جيش سيف الدولة بقصيدة حماسيّة خالدة، فسجّل بذلك أكبر ملاحم الشعر العربي بأفخم أسلوب وأعذب بيان.

وقد واصل الفخر مسيرته بعد العصر العبّاسي ولكن ببطء، إلى أن تعسّرت تلك المسيرة في العصور المتأخّرة لانتشار الحضارة الحديثة وازدياد الوعي. وإنْ تردّدت بعض أصداء هذا اللون من الشّعر، من حين إلى آخر، فما ذلك إلا صدىً للأساليب السابقة، التي عرفناها، دون انطلاق ودون تجديد.

أبو العلاء المعرِّيّ

هو أحمد بن عبدالله بن سليمان (٣٦٣هـ/٩٧٣م - ٤٤٩هـ/١٠٥٧م) شاعر فيلسوف. ولد ومات في معرّة النعمان. أصيب بالجدريّ صغيرًا، فعمي في السنة الرابعة من عمره. لم يأكل اللحم خمسًا وأربعين سنة. وكان يلبس خشن الثياب. لمّا مات وقف على قبره ٨٤ شاعرًا يرثونه. له ديوان شعريّ من ثلاثة أقسام «لزوم ما لا يلزم»، ويعرف باللزوميّات، و«سقط الزند»، و«ضوء السَّقط». له مؤلّفات عديدة، منها «رسالة الغفران».

* * *

لآتٍ بما لَمْ تَسْتَطِعْهُ الأوائِلُ

ألا في سَبِيْلِ المَجْدِ ما أَنـا فـاعِـلُ   عَفافٌ، وإقْدامٌ، وحَـزْمٌ، ونـائِـلُ[1]

أَعِنْدي، وَقَدْ مـارَسْـتُ كُـلَّ خَفِيَّـةٍ   يُصَدَّقُ واشٍ أَوْ يُخَيَّبُ سـائِـلُ؟[2]

تُعَـدُّ ذُنـوبـي عِنْـدَ قَـوْمٍ كَثِيْـرَةً   ولا ذَنْبَ لي إلّا العُلَى والْفَواضِـلُ[3]

---

(١) أي كلٌّ ما أفعله من عِفَّة وشجاعة وحزم وكرم هو في سبيل المجد والعلى.

(٢) الواشي: النّمام المفسد.

(٣) الفواضل: الفضائل.

وَقَدْ سارَ ذِكْرِي في البِلادِ فَمَنْ لَهُمْ ... بإخْفاءِ شَمْسٍ ضَوْؤُها مُتَكامِلُ

وَإنِّي، وإنْ كُنْتُ الأَخِيرَ زَمانُهُ ... لآتٍ بِما لَمْ تَسْتَطِعْهُ الأوائِلُ[1]

وَأَغْدُو وَلَوْ أَنَّ الصَّباحَ صَوارِمٌ ... وَأَسْرِي وَلَوْ أَنَّ الظَّلامَ جَحافِلُ[2]

وَإنِّي جَوادٌ لَمْ يُحَلَّ لِجامُهُ ... وَنِضْوٌ يَمانٍ أَغْفَلَتْهُ الصَّياقِلُ[3]

وإنْ كانَ في لُبْسِ الفَتَى شَرَفٌ لَهُ ... فَما السَّيْفُ إلّا غِمْدُهُ والحَمائِلُ[4]

ولَمّا رَأَيْتُ الجَهْلَ في النّاسِ فاشِيًا ... تَجاهَلْتُ حَتَّى ظُنَّ أَنِّي جاهِلُ

فَوا عَجَبًا كَمْ يَدَّعِي الفَضْلَ ناقِصٌ! ... وَوا أَسَفًا كَمْ يُظْهِرُ النَّقْصَ فاضِلُ

يُنافِسُ يومي فِيَّ أَمْسِي تَشَرُّفًا ... وَتَحْسُدُ أَسْحارِي عَلَيَّ الأصائِلُ[5]

وطالَ اعْتِرافي بالزَّمانِ وَصَرْفِهِ ... فَلَسْتُ أُبالي مَنْ تَغولُ الغوائِلُ[6]

★ ★ ★

---

(١) الأوائل: الأقدمون.

(٢) صوارم: سيوف قاطعة. جحافل: جيوش كثيرة. والمعنى: أنني أسير إلى غرضي صباحًا ولو كان الصباح سيوفًا قاطعة تهدّدني وتمنعني، وأسير مساءً، ولو كان الظلام جيوشًا تقاومني وتردعني.

(٣) لم يُحَلَّ: لم يَزيَّن. نضو يمانٍ: سيف يماني. الصياقل: ج «صيقل»، وهو الذي يصقل السيوف.

(٤) الغمد: غلاف السيف. الحمائل: ج «حمالة»، وهي علاقة السيف.

(٥) الأسحار: ج «سحر»، وهو آخر الليل. الأصائل: ج «أصيل»، وهو وقت بين العصر والمغرب.

(٦) صرف الدهر: مصائبه. تغول: تهلك. الغوائل: ج «غائلة»، وهي المصيبة.

مهيار الدّيلميّ

هو أبو الحسن مهيار بن مرزويه الدّيلميّ (٠٠٠ ـ ٤٢٨ هـ/ ١٠٣٧ م) شاعر كبير جمع بين فصاحة العرب ومعاني العجم. كان مجوسيًّا، فأسلم سنة ٣٩٤ هـ على يد الشّريف الرَّضيّ، وتشيّع، وغلا في تشيّعه. له «ديوان شعر». ومن هذا الديوان نقتطف القصيدتين التاليتين:

شَفَى ٱللهُ نَفْسًا لَا تَذِلُّ لِمَطْلَبِ ... وَصَبْرًا مَتَى يَسْمَعْ بِهِ ٱلدَّهْرُ يَعْجَبِ

وَصَدْرًا إِذَا ضَاقَتْ صُدُورٌ رَحِيبَةٌ ... لِخَطْبٍ تَلَقَّاهُ بِأَهْلٍ وَمَرحَبِ

أَفِقْ يَا زَمَانِي رُبَّمَا أَنَا صَائِرٌ ... إِلَى سَهْلٍ مَا أَرجُو بِفَرْطِ تَصَعُّبِي

أَغَرَّكَ فِي ثَوبِ ٱلْعَفَافِ تَزَمُّلِي ... وَأَخْذِي مَكَانَ ٱلْآمِلِ ٱلْمُتَرَقِّبِ

إِذَا أَنَا طَالَتْ وَقْفَتِي فَتَوَقَّنِي ... فَإِنَّ لَهَا لَا بُدَّ وَثْبَةَ مُنْجِبِ

وَيَا صَاحِبِي وَٱلذُّلُّ لِلرِّزْقِ مَورِدٌ ... أَضِنُّ بِنَفْسِي عَنْهُ وَهْيَ تَجُودُ بِي

خُذِ ٱلنَّفْسَ عَنِّي وَٱلْمَطَامِعُ إِنَّهَا ... قَدِ ٱسْتَوْطَأَتْ مِنْ ظَهْرِهَا غَيْرَ مَرْكَبِي

حَرَامٌ وَإِنْ أَثْرَيْتُ أَطْيَبُ مَطْعَمٍ ... عَلَيَّ إِذَا أَدَّاهُ أَخْبَثُ مَكْسِبِ

وَمَا سَرَّنِي فِي ٱلْحَقِّ أَنِّي مَعَ ٱلْعِدَى ... وَلَا عَابَ أَنِّي فِي ٱلْمُحَالِ عَلَى أَبِي

وَحَاجَةُ نَفْسٍ دَبَّرَ ٱلْحَزْمُ صَدْرَهَا ... فَأُبْتُ بِهَا مَحْمُودَةً فِي ٱلْمُعَقَّبِ

★ ★ ★

أنا مَنْ يُرْضيكِ عِنْدَ النَّسَبِ

أُعْجِبَتْ بي بَيْنَ نادي قَوْمِها ... أُمُّ سَعْدٍ، فَمَضَتْ تَسْأَلُ بي

سَرَّها ما عَلِمَتْ مِنْ خُلُقي ... فَأَرادَتْ عِلْمَها ما حَسَبِي

لا تَخالي نَسَبًا يَخْفِضُني ... أنا مَنْ يُرضيكِ عِنْدَ النَّسَبِ[1]

قَوْمِيَ اسْتَوْلَوا على الدَّهْرِ فَتًى ... وَمَشَوا فوقَ رُؤوسِ الحِقَبِ[2]

عَمَّموا بالشَّمْسِ هاماتِهِمُ ... وَبَنَوا أَبْياتَهُمْ بالشُّهُبِ[3]

وَأَبي كِسْرى على إيْوانِهِ ... أَيْنَ، في الناسِ، أَبٌ مِثْلُ أَبي؟[4]

قَدْ قَبَسْتُ المَجْدَ مِنْ خَيْرِ أَبٍ ... وَقَبَسْتُ الدِّيْنَ مِنْ خَيْرِ نَبي

وَضَمَمْتُ الفَخْرَ مِنْ أَطْرافِهِ ... سُؤْدُدَ الفُرْسِ ودِيْنَ العَرَبِ[5]

★ ★ ★

(١) تخالي: تَحسبي.
(٢) الحِقَب: جمع «حقبة»، وهي المُدّة من الزمان.
(٣) هاماتهم: أعلى رؤوسهم. الشُّهُب: جمع «شهاب»، وهو النَّجم المُضيء، أو ما يُرى كأنَّه نجم مُضيء ينْقضّ من السَّماء.
(٤) إيوانه: قصره.
(٥) سؤدد: سيادة، ورفْعة.

المتنبّي

هو شاعر عَصْرِه، بل شاعر العرب جميعًا على مَرّ العصور، أحمد بن الحسين بن الحسن (٩١٥ م/٣٠٣ هـ - ٩٦٥ م/٣٥٤ هـ). قضى حياته متنقّلا من أمير إلى آخر، يمدح هذا ويهجو ذاك، لكنَّ أكثر إقامته كانت في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب. اشتُهر بالشعر الحكميّ، والفخر والمدح والهجاء. هو شاعر الفخر بلا منازع في الأدب العربيّ.

أُطاعِنُ خَيْلًا من فَوارِسِها ٱلدَّهْرُ ... وَحِيدًا وَما قَوْلي كَذا وَمَعِي ٱلصَّبْرُ

وأَشجَعُ مِنّي كُلَّ يَوْمٍ سَلامَتِي ... وَما ثَبَتَتْ إلَّا وفي نَفْسِها أَمرُ

تَمَرَّسْتُ بِٱلآفاتِ حَتَّى تَرَكْتُها ... تَقُولُ أَماتَ المَوْتُ أَمْ ذُعِرَ ٱلذُّعْرُ

وأَقْدَمْتُ إِقْدامَ ٱلْأَتِيِّ كَأَنَّ لي ... سِوَى مُهجَتي أَو كانَ لي عِندَها وِتْرُ

ذَرِ ٱلنَّفْسَ تَأْخُذْ وُسْعَها قَبْلَ بَيْنِها ... فَمُفْتَرِقٌ جاران دارُهُما ٱلعُمْرُ

وَلا تَحْسَبَنَّ ٱلمَجْدَ زِقًّا وَقَيْنَةً ... فَما ٱلمَجْدُ إِلَّا ٱلسَّيْفُ وٱلفَتْكَةُ ٱلبِكْرُ

وَتَضْرِيبُ أَعناقِ ٱلمُلُوكِ وأَنْ تُرَى ... لَكَ ٱلهَبَواتُ ٱلسُّودُ وٱلعَسْكَرُ ٱلمَجْرُ

وَتَرْكُكَ في ٱلدُّنيا دَوِيًّا كَأَنَّما ... تَداوَلَ سَمْعَ ٱلمَرْءِ أَنمُلُهُ ٱلعَشْرُ

عَلَيَّ لِأَهْلِ ٱلجَوْرِ كُلُّ طِمِرَّةٍ   عَلَيها غُلامٌ مِلْءُ حَيْزُومِهِ غِمْرُ
يُدِيرُ بِأَطْرَافِ ٱلرِّماحِ عَلَيْهِمِ   كُؤُوسَ ٱلْمَنَايا حَيْثُ لا تُشْتَهَى ٱلْخَمْرُ

★ ★ ★

ضُرُوبُ ٱلنَّاسِ عُشَّاقٌ ضُرُوبا   فَأَعْذَرُهُمْ أَشَقُّهُمُ حَبِيبا
وَما سَكَنِي سِوَى قَتْلِ ٱلأَعادِي   فَهَلْ مِنْ زَوْرَةٍ تَشْفِي ٱلْقُلُوبا
تَظَلُّ ٱلطَّيْرُ مِنها فِي حَدِيثٍ   تَرُدُّ بِهِ ٱلصَّرَاصِرَ وَٱلنَّعِيبا
وَقَدْ لَبِسَتْ دِماءَهُمُ عَلَيْهِمْ   حِدَادًا لَمْ تَشُقَّ لَهُ جُيُوبا
أَدَمْنَا طَعْنَهُمْ وَٱلقَتْلَ حَتَّى   خَلَطْنا فِي عِظَامِهِمِ ٱلكُعُوبا
كَأَنَّ خُيولَنا كَانَتْ قَدِيمًا   تُسَقَّى فِي قُحُوفِهِمِ ٱلْحَلِيبا
فَمَرَّتْ غَيْرَ نَافِرَةٍ عَلَيْهِمْ   تَدُوسُ بِها ٱلْجَماجِمَ وَٱلتَّرِيبا

★ ★ ★

مَفْرَشِي صَهْوَةُ ٱلْحِصَانِ وَلٰكِنَّ قَمِيصِي مَسْرُودَةٌ[1] مِنْ حَدِيدِ
أَيْنَ فَضْلِي إِذَا قَنِعْتُ مِنَ ٱلدَّهْرِ بِعَيْشٍ مُعَجَّلِ ٱلتَّنْكِيدِ[2]
ضَاقَ صَدْرِي وَطَالَ فِي طَلَبِ ٱلرِّزْ   قِ قِيَامِي وَقَلَّ عَنْهُ قُعُودِي
أَبَدًا أَقْطَعُ ٱلْبِلادَ وَنَجْمِي   فِي نُحُوسٍ وَهِمَّتِي فِي سُعُودِ
عِشْ عَزِيزًا أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ   بَيْنَ طَعْنِ ٱلْقَنَا وَخَفْقِ ٱلْبُنُودِ
فَرُؤُوسُ ٱلرِّمَاحِ أَذْهَبُ لِلْغَيْظِ وَأَشْفَى لِغِلِّ صَدْرِ ٱلْحَقُودِ

---

(١) درع مسرودة اي منسوجة.
(٢) التكدير.

لاكَمَا قَدْ حَيِيتَ غَيْرَ حَمِيدِ وَإِذَا مُتَّ مُتَّ غَيْرَ فَقِيدِ
فَٱطْلُبِ ٱلْعِزَّ فِي لَظًى[1] وَدَعِ ٱلذُّلَّ وَلَوْ كَانَ فِي جِنَانِ ٱلْخُلُودِ
يُقْتَلُ ٱلْعَاجِزُ ٱلْجَبَانُ وَقَدْ يَعْجِزُ عَنْ قَطْعِ بِخُنْقِ ٱلْمَوْلُودِ[2]
وَيُوَقَّى ٱلْفَتَى ٱلْمِخَشُّ وَقَدْ خَوَّضَ فِي مَاءِ لَبَّةِ ٱلصِّنْدِيدِ[3]
لَا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي
وَبِهِمْ فَخْرُ كُلِّ مَنْ نَطَقَ ٱلضَّادَ وَعَوْذُ ٱلْجَانِي وَغَوْثُ ٱلطَّرِيدِ
إِنْ أَكُنْ مُعْجَبًا فَعُجْبُ عَجِيبٍ لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدِ
أَنَا تِرْبُ ٱلنَّدَى وَرَبُّ ٱلْقَوَافِي وَسِمَامُ[4] ٱلعِدَى وَغَيْظُ ٱلْحَسُودِ

★ ★ ★

أَمِثْلِي تَأْخُذُ ٱلنَّكَبَاتُ مِنْهُ وَيَجْزَعُ مِنْ مُلَاقَاةِ ٱلْحِمَامِ
وَلَوْ بَرَزَ ٱلزَّمَانُ إِلَيَّ شَخْصًا لَخَضَّبَ شَعْرَ مَفْرِقِهِ حُسَامِي
وَمَا بَلَغَتْ مَشِيئَتَهَا ٱللَّيَالِي وَلَا سَارَتْ وَفِي يَدِهَا زِمَامِي
إِذَا ٱمْتَلَأَتْ عُيُونُ ٱلْخَيْلِ[5] مِنِّي فَوَيْلٌ فِي ٱلتَّيَقُّظِ وَٱلْمَنَامِ

★ ★ ★

---

(١) جهنم.

(٢) الخنق: خرقة يقنّع بها الرأس، وتُشدّ تحت الحنك. يقول: قد يقتل العاجز الجبان، فليس العجز والجبن من أسباب البقاء، فإياك والجبن حبًّا للبقاء.

(٣) المخش الجريء على الليل. وخوّض بالغ في الخوض. واللبة اعلى الصدر.

(٤) السمام جمع سمّ.

(٥) اي ارباب الخيل.

إِذَا غَامَرْتَ[1] فِي شَرَفٍ مَرُومِ فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ ٱلنُّجُومِ
فَطَعْمُ ٱلْمَوْتِ فِي أَمْرٍ حَقِيرٍ كَطَعْمِ ٱلْمَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمِ
يَرَى ٱلْجُبَنَاءُ أَنَّ ٱلْعَجْزَ عَقْلٌ وَتِلْكَ خَدِيعَةُ ٱلطَّبْعِ ٱللَّئِيمِ
وَكُلُّ شَجَاعَةٍ فِي ٱلْمَرْءِ تُغْنِي وَلَا مِثْلَ ٱلشَّجَاعَةِ فِي ٱلْحَكِيمِ
وَكَم مِن عَائِبٍ قَولًا صَحِيحًا وَآفَتُهُ مِنَ ٱلْفَهْمِ ٱلسَّقِيمِ
وَلٰكِن تَأْخُذُ ٱلْآذَانُ مِنْهُ عَلَى قَدَرِ ٱلْقَرَائِحِ وَٱلْعُلُومِ

★ ★ ★

الخيلُ واللَّيْلُ والبيداءُ تعْرِفُني

سَيَعْلَمُ الجَمْعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنا بِأنَّني خَيْرُ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَمُ
أنا الذي نَظَرَ الأعْمَى إلى أدَبي وَأسْمَعَتْ كَلِمَاتي مَنْ بِهِ صَمَمُ
أنامُ مِلْءَ جُفُوني عَنْ شَوارِدِها وَيَسْهَرُ الخَلْقُ جَرّاها ويَخْتَصِمُ[2]
وجاهِلٍ مَدَّهُ في جَهْلِهِ ضَحِكي حَتَّى أتَتْهُ يَدٌ فَرّاسَةٌ وَفَمُ[3]
إذا رَأيْتَ نُيوبَ اللَّيْثِ بارِزَةً فَلا تَظُنَّنَّ أنَّ اللَّيْثَ يَبْتَسِمُ
الخَيْلُ واللَّيْلُ والبَيْداءُ تَعْرِفُني والسَّيْفُ والرُّمْحُ والقِرْطاسُ والقَلَمُ
صَحِبْتُ، في الفَلَواتِ، الوَحْشَ مُنْفَرِدًا حَتَّى تَعَجَّبَ مِنِّي القُورُ والأكَمُ[4]

---

(١) دخلت في الغمرات اي المهالك.
(٢) أي: تأتيني الكلمات عفو الخاطر، ويسهر غيري من الشعراء بحثًا عنها.
(٣) فرّاسة: بطّاشة.
(٤) الفَلَوات: الصحاري. القور: جمع «قارة» وهي الأرض ذات الحجارة السوداء؛ والقور، أيضًا أصاغر الجبال، وأعاظم الآكام.

كَمْ تَطْلُبونَ لَنا عَيْبًا، فَيُعْجِزُكُمْ ... وَيَكْرَهُ اللهُ ما تَأْتُونَ والكَرَمُ

ما أَبْعَدَ العَيْبَ والنُّقْصانَ عَنْ شَرَفي ... أَنا الثُّرَيَّا وذانِ الشَّيْبُ والهَرَمُ[1]

★ ★ ★

اذا شَدَّ زَنْدِي حُسْنُ رَأْيِكَ فِيهِمِ ... ضَرَبْتُ بِسَيْفٍ يَقْطَعُ ٱلهامَ مغْمَدا

وما أَنا إلاَّ سَمْهَرِيٌّ حَمَلْتَهُ ... فَزَيَّنَ مَعْرُوضًا وَراعَ مُسَدَّدا

وما ٱلدَّهرُ إلاَّ مِن رُواةِ قَصائِدِي ... إذا قُلْتُ شِعرًا أَصبحَ ٱلدَّهرُ مُنشِدا

فَسارَ بِهِ مَنْ لا يَسِيرُ مُشَمِّرًا ... وغَنَّى بِهِ مَنْ لا يُغَنِّي مُغَرِّدا

أَجِزْني إذا أُنشِدتَ شِعرًا فإنَّما ... بِشِعرِي أَتاكَ ٱلمادِحُونَ مُرَدَّدا

وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرِ صَوْتي فإنَّني ... أنا ٱلطَّائِرُ ٱلمَحْكِيُّ وٱلآخَرُ ٱلصَّدَى

★ ★ ★

(١) ذان: أي العيب والنقصان. يقول: إنّ العيب والنقصان بعيدان عنّي كبعد الثريّا من الشّيب والهرم.

ابن سناء الملك

هو هبة الله بن جعفر بن سناء الملك أبي عبد الله محمد بن هبة الله السعديّ (٥٤٥ هـ/ ١١٥٠ م - ٦٠٨ هـ/ ١٢١٢ م) شاعر من النبلاء مصري المولد والوفاة. كان وافر الفضل، جيِّد الشعر، بديع الإنشاء. كتب في ديوان الإنشاء بمصر مدّة. له «روح الحيوان» اختصر به الحيوان للجاحظ، وديوان شعر.

★ ★ ★

سِوايَ يَهابُ الموتَ

سِوايَ يهابُ الموتَ، أوْ يرهَبُ الرَّدى ... وَغَيْـرِيَ يَهْـوَى أنْ يَعِيشَ مُخَلَّـدا

ولكنَّني لا أَرْهَـبُ الدَّهـرَ إنْ سَطـا ... ولا أَحْذَرُ الموتَ الزُّؤامَ إذا عَـدا[1]

وَلَوْ مَدَّ نَحْوي حادِثُ الدَّهْـرِ كَفَّـهُ ... لَحَـدَّثْـتُ نَفْسِـي أَنْ أَمُـدَّ لَـهُ يَـدا

تَوَقُّـدُ عَـزْمـي يَتْـرُكُ المـاءَ جَمْـرَةً ... وحِيلَةُ حلْمي تَتْـرُكُ السَّيْـفَ مَبْـرَدا

وَأَظْمَـأُ إنْ أَبْـدى لـيَ المـاءُ مِنَّـةً ... ولو كانَ لي نَهْـرُ المجـرَّةِ مـورِدا[2]

---

(١) الزؤام: السَّريع.

(٢) المجرّة: نجوم كثيرة في السّماء لا تُدرك بمجرد البصر، وإنَّما ينتشر ضوؤها، فيُرى كأنّه بقعة بيضاء.

ولـو كـانَ إدْراكُ الهُـدى بِتَـذَلُّـلٍ رَأَيْتُ الهُدى أنْ لا أَمِيْلَ إلى الهُـدى

وإنَّـكَ عَبْـدي، يـا زمـانُ، وإنَّنـي على الرُّغْمِ مِنِّي أَنْ أرى لـكَ سَيِّـدا

وما أنـا راضٍ أَنَّنـي واطِـئُ الثَّـرى ولي هِمَّةٌ لا تَرْتَضـي الأُفْـقَ مَقْعَـدا

وَلَوْ عَلِمَتْ زُهْـرُ النُّجـومِ مكـانَتـي لَخَرَّتْ جميعًا نَحْـوَ وَجْهـيَ سُجَّـدا

أَرَى الخَلْقَ دوني إذْ أرانـي فَـوْقَهُـمْ ذكـاءً، وعِلْمًـا، واعْتِلاءً، وسُـؤْدُدا

ولـي قَلَـمٌ فـي أَنْمُلِـي إنْ هَـزَزْتُـهُ فَما ضَـرَّنـي أنْ لا أَهُـزَّ المُهَنَّـدا[1]

إذا صالَ فوقَ الطِّرْسِ وَقْعُ صَريـرِهِ فإنَّ صَليلَ المشرفـيِّ لَـهُ صَـدَى[2].

★ ★ ★

(١) المهنّد: السَّيف.

(٢) الطرس: الصَّحيفة. الصرير: صوت القلم. الصليل: صوت السيف. المشرفيّ: السيف.

أبو فراس الحمدانيّ

هو الأمير الشاعر الفارس الحارث بن سعيد (٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م - ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م). ابن عم سيف الدولة أمير حلب. أسره الروم، فكتب، وهو في الأسر، رسائل خالدة عُرِفَت ب« الروميات». امتاز شعره بالرقَّة والعذوبة على سموٍّ وأنفة، اكثره في العتاب والفخر، والمدح، والوجدانيّات، وبعضه في الغزل. ومن قصائده في الفخر نقتطف ما يلي:

★ ★ ★

تُسائِلُني: مَنْ أنْتَ؟

تُسَائِلُني مَنْ أنْتَ وَهْيَ عَلِيمَةٌ — وَهَلْ بِفَتًى مِثْلِي على حالِهِ نُكْرُ؟

فَقُلْتُ كَمَا شاءَتْ وشاءَ لها الهَوَى: — قَتيلُكِ! قالت: أيُّهُمْ؟ فَهُمُ كُثْرُ

فَقُلْتُ لها: لو شِئْتِ لَمْ تَتَعَنَّتِي — ولم تَسْألي عَنِّي وعِنْدَكِ بي خُبْرُ[1]

(١) تعنَّت: سأله عن شيءٍ بقصد الخلط عليه وإلحاق المشقة والأذى به.

فَقَالَتْ: لَقَدْ أَزْرَى بِكَ الدَّهْرُ بَعْدَنَا فَقُلْتُ: مَعَاذَ اللهِ بَلْ أَنْتِ لا الدَّهْرُ

وما كانَ لِلأَحْزانِ لَوْلاَكِ مَسْلَكٌ إلى القَلْبِ لٰكِنَّ الهَوَى لِلْبَلَى جِسْرُ

وَتَهْلِكُ بينَ الهَزْلِ والجِدِّ مُهْجَةٌ إذا ما عَدَاها البَيْنُ عَذَّبَها الهَجْرُ

وساحِبَةِ الأذيالِ نَحْوِي لَقِيتُها فَلَمْ يَلْقَها جافي اللّقاءِ ولا وَعْرُ[1]

وَهَبْتُ لها ما حَازَهُ الجَيْشُ كلّهُ ورُحْتُ، وَلَمْ يُكْشَفْ لأَبْيَاتِها سِتْرُ

ولا رَاحَ يُطْغِينِي بأثوابِهِ الغِنَى ولا بَاتَ يَثْنِينِي عن الكَرَمِ الفَقْرُ

وما حاجَتي بالمالِ أبْغي وُفُورَهُ إذَا لَمْ أفِرْ عِرْضِي، فلا وَفَرَ الوَفْرُ

أُسِرْتُ، وما صَحْبِي بِعُزْلٍ لَدَى الوَغَى ولا فَرَسِي مُهْرٌ، ولا رَبُّهُ غَمْرُ[2]

ولكنْ إذا حُمَّ القضاءُ على امْرِىءٍ فَلَيْسَ لَهُ بَرٌّ يَقِيهِ ولا بَحْرُ

وقال أُصَيْحَابي: الفِرارُ أوِ الرَّدَى فَقُلْتُ: هما أمْرَانِ أحْلاهما مُرُّ

ولٰكِنَّني أمْضِي لِمَا لا يَعِيبُنِي وَحَسْبُكَ مِنْ أمْرَينِ خَيْرُهُما الأَسْرُ

يَقُولُون لي: بِعْتَ السَّلاَمَةَ بالرَّدَى فَقُلْتُ: أمَا واللهِ ما نَالَنِي خُسْرُ

★ ★ ★

(١) ساحبة الأذيال: كناية عن تبخترها. جافي اللقاء ولا وعر: المراد أنّه استقبلها بالحسنى دون جفاء.

(٢) عزل: لا سلاح معهم. لا فرسي مهر: أي إنّه مجرب. لا ربّه غمر: أيّ ليس بحديث العهد في خوضه المعارك.

وفي اللَّيْلَةِ الظَّلْماءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ

سَيَذْكُرُني قومي إذا جَدَّ جِدُّهُمْ ... وفي اللَّيْلَةِ الظَّلْماءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ[1]

فإنْ عِشْتُ فالطَّعْنُ الذي يَعْرِفُونَهُ ... وتِلْكَ القَنَا والبِيضُ والضُّمَّرُ الشُّقْرُ

وإنْ مُتُّ فالإنْسانُ لا بُدَّ مَيِّتٌ ... وإنْ طالَتِ الأيّامُ وآنْفَسَحَ العُمْرُ

ولو سَدَّ غَيْرِي ما سَدَدْتُ آكْتَفَوا بِهِ ... وَمَا كان يَغْلو التِّبْرُ لو نَفَقَ الصُّفْرُ[2]

ونَحْنُ أُنَاسٌ لا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا ... لَنَا الصَّدْرُ دُونَ العَالَمِينَ أوِ القَبْرُ

تَهُونُ عَلَيْنا في المعالي نُفُوسُنا ... وَمَنْ خَطَبَ الحَسْنَاءَ لم يُغْلِها المَهْرُ

أعَزُّ بَنِي الدُّنْيَا وأعْلَى ذَوِي العُلَى ... وَأكْرَمُ مَنْ فَوْقَ التُّرابِ ولا فَخْرُ

★ ★ ★

وعُرِضت على سيف الدولة خيوله وبنو أخيه حضورٌ فكلٌّ اختار منها وطلب حاجته من دون ابي فراس فعتب عليه سيف الدولة فانشده:

غَيْري يُغَيِّرُهُ آلْفَعَالُ آلْجَافِي ... وَيَحُولُ عَنْ شِيَمِ آلكَرِيمِ آلْوَافِي

لاَ أَرْتَضِي وِدًّا إذَا هُو لَمْ يَدُمْ ... عِنْدَ آلْوَفَاءِ وَقِلَّةِ آلإنْصَافِ

تَعِسَ آلْحَرِيصُ وَقَلَّ مَا يَأْتِي بِهِ ... عِوَضًا مِنَ آلإلْحَاحِ وآلإلْحَافِ

إنَّ الغَنِيَّ هُوَ آلْغَنِيُّ بِنَفْسِهِ ... وَلَوَ آنَّهُ عَارِي آلْمَنَاكِبِ جَافِ

مَا كُلُّ مَا فَوْقَ آلْبَسِيطَةِ كَافِيًا ... فَإذَا آقْتَنَعْتَ فَكُلُّ شَيءٍ كَافِ

وَيَعَافُ لي طَبْعُ آلْحَرِيصِ أُبُوَّتي ... وَمُرُوءَتي وَقَنَاعَتي وَعَفَافِي

---

(١) إذا جَدَّ جدُّهم: آشتد خَطْبُهم.

(٢) التبر: الذهب. الصفر: النحاس.

مَا كَثْرَةُ ٱلْخَيْلِ ٱلْجِيَادِ بِرَائِدِي شَرَفًا وَلاَعَدْوُ ٱلسَّوَامِ ٱلصَّافِي
وَمَكَارِمِي عَدَدُ ٱلنُّجُومِ وَمَنْزِلِي بَيْتُ ٱلْكِرَامِ وَمَنْزِلُ ٱلأَضْيَافِ
لاَ أَقْتَنِي لِصُرُوفِ دَهْرِي عُدَّةً حَتَّى كَأَنَّ صُرُوفَهُ أَحْلاَفِي
خَيْلِي وَإِنْ قَلَّتْ كَثِيرٌ نَفْعُهَا بَيْنَ ٱلصَّوَارِمِ وَٱلقَنَا ٱلرَّعَّافِ
شِيَمٌ عُرِفْتُ بِهِنَّ مُذْ أَنَا يَافِعٌ وَلَقَدْ عَرَفْتُ بِمِثْلِهَا أَسْلاَفِي

★ ★ ★

وله من قصيدة:

إِذَا مَا ٱلْعِزُّ أَصْبَحَ فِي مَكَانٍ سَمَوْتُ لَهُ وَإِنْ بَعُدَ ٱلْمَزَارُ
أَبَتْ لِي هِمَّتِي وَغِرَارُ سَيْفِي وَعَزْمِي وَٱلْمَطِيَّةُ وَٱلْقِفَارُ
وَنَفْسٌ لاَ تُجَاوِرُهَا ٱلدَّنَايَا وَعِرْضٌ لاَ يُرِفُّ عَلَيْهِ عَارُ[1]
إِذَا أَمْسَتْ نِزَارٌ[2] لَنَا عَبِيدًا فَإِنَّ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمُ نِزَارُ

★ ★ ★

وقال ايضًا مفتخرًا بقومه من قصيدة:

أَلَمْ تَرَنَا أَعَزَّ ٱلنَّاسِ جَارًا وَأَمْرَعَهُمْ[3] وَأَمْنَعَهُمْ جَنَابَا
لَنَا ٱلْجَبَلُ ٱلْمُطِلُّ عَلَى نِزَارٍ حَلَلْنَا ٱلْمَجْدَ[4] مِنْهُ وَٱلهِضَابَا
تُفَضِّلُنَا ٱلأَنَامُ وَلاَ نُحَاشَى وَنُوصَفُ بِٱلْجَمِيلِ وَلاَ نُحَابَى[5]

---

(١) اي لا يبسط عليه عار.
(٢) اسم قبيلة.
(٣) أخصبهم.
(٤) المجد: الأرض المرتفعة.
(٥) اي لا نسامح ولا نساهل.

وَقَدْ عَلِمَتْ رَبِيعَةُ بَلْ نِزَارٌ ... بِأَنَّا ٱلرَّأْسُ وَٱلنَّاسَ ٱلذُّنَابَى
وَلَمَّا أَنْ طَغَتْ سُفَهَاءُ كَعْبٍ ... فَتَحْنَا بَيْنَنَا لِلْحَرْبِ بَابَا
مَنَحْنَاها ٱلْحَرَائِبَ[1] غَيْرَ أَنَّا ... إذَا جَارَتْ مَنَحْنَاهَا ٱلْحِرَابَا
وَلَمَّا ثَارَ سَيْفُ ٱلدّينِ ثُرْنَا ... كَمَا هَيَّجْتَ آسَادًا غِضَابَا
دَعَانَا وَٱلأَسِنَّةُ مُشْرَعَاتٌ ... فَكُنَّا عِنْدَ دَعْوَتِهِ ٱلْجَوَابَا
فَمَا كَانُوا لَنَا إلاَّ أَسَارَى ... وَمَا كَانُوا لَنَا إلاَّ نِهَابَا[2]
فَلَمَّا ٱشْتَدَّتِ ٱلْهَيْجَاءُ كُنَّا ... أَشَدَّ مَخَالِبَاً وَأَحَدَّ نَابَا
وَأَمْنَعَ جَانِبًا وَأَعَزَّ جَارًا ... وَأَوْفَرَ ذِمَّةً وَأَقَلَّ عَابَا
دِيَارُهُمُ ٱنْتَزَعْنَاهَا ٱقْتِسَارًا ... وَأَرْضُهُمُ ٱغْتَصَبْنَاهَا ٱغْتِصَابَا
وَلَوْ شِئْنَا حَمَيْنَاهَا ٱلْبَوَادِي ... كَمَا تَحْمِي أُسُودُ ٱلْغَابِ غَابَا
إذَا مَا أَنْفَذَ ٱلأُمَرَاءُ جَيْشًا ... إلَى ٱلأَعْدَاءِ أَنْفَذْنَا كِتَابَا
أَنَا ٱبْنُ ٱلضَّارِبِينَ ٱلْهَامَ قِدْمًا ... إذَا كَرِهَ ٱلْمُحَامُونَ ٱلضِّرَابَا
أَلَمْ تَعْلَمْ وَمِثْلُكَ قَالَ حَقًّا ... بِأَنِّي كُنْتُ أَثْقَبَهَا شِهَابَا

* * *

وبلغه عن قوم من اهله كراهية خلاصه فقال:

تَمَنَّيْتُمُ أَن تَفْقِدُونِي وَإِنَّمَا ... تَمَنَّيْتُمُ أَن تَفْقِدُوا ٱلْعِزَّ أَصْيَدَا
أَمَا أَنَا أَعْلَى مَنْ تَعُدُّونَ هِمَّةً ... وَإِنْ كُنْتُ أَدْنَى مَنْ تَعُدُّونَ مَوْلِدَا

---

(١) جمع حريبة وهي المال الذي يسلب او يعاش به.
(٢) جمع نهب وهو الغنيمة.

إِلَى اللهِ أَشْكُو عُصبَةً مِنْ عَشِيرَتي | يُسِيئُونَنِي فِي ٱلْقَوْلِ غَيْبًا وَمَشْهَدَا
وَإِنْ حَارَبُوا كُنْتُ ٱلْمِجَنَّ أَمَامَهُمْ[1] | وَإِنْ ضَرَبُوا كُنْتُ ٱلْمُهَنَّدَ وَٱلْيَدَا
وَإِنْ نَابَ خَطْبٌ أَوْ أَلَمَّتْ مُلِمَّةٌ | جَعَلْتُ لَهُمْ كَفِّي وَمَا مَلَكت فِدَى
يَوَدُّوْنَ أَنْ لاَ يُبْصِرُونِي سَفَاهَةً | وَإِنْ غِبْتُ عَنْ أَمْرٍ تَرَكْتُهُمُ سُدَى
فَلاَ تَعِدُونِي نِعْمَةً فَمَتَى غَدَتْ | فَأَهْلِي بِها أَوْلَى وَلَوْ أَصْبَحُوا عِدَى

★ ★ ★

وقال أيضًا يفتخر:

إِذَا مَرَرْتَ بِوَادٍ جَاشَ غَارِبُهُ[2] | فَٱعْقِلْ قَلُوصَكَ[3] ذَاكَ ٱلتُّربُ وَادِينَا
وَإِنْ وَقَفْتَ بِنَادٍ لاَ يُطِيفُ بِهِ | أَهْلُ ٱلسَّفَاهَةِ فَٱجْلِسْ فَهْوَ نَادِينَا
نُغِيرُ فِي ٱلْهَجْمَةِ[4] ٱلْغَرَّاءِ نَنْحَرُهَا | حَتَّى لِيَعْطَشُ فِي ٱلأَحْيَانِ رَاعِينَا
وَيُصْبِحُ ٱلضَّيْفُ أَوْلاَنَا بِمَنْزِلِنَا | نَرْضَى بِذَاكَ وَيُمْضِي حُكْمُهُ فِينَا

★ ★ ★

---

(١) المجن الترس.
(٢) جاش زخر وامتد. والغارب اعلى الموج.
(٣) القلوص الناقة الشابّة. وعقلها ثنى وظيفها مع ذراعها وشدّهما معًا بحبل.
(٤) الهجمة من الابل ما بين السبعين الى المئة.

البحتريّ

هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائيّ (٢٠٦ هـ/٨٢١ م - ٢٨٤ هـ/٨٩٨ م) شاعر كبير يُقال لشعره «سلاسل الذهب». وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم: المتنبّي، وأبو تمام، والبحتري. قيل لأبي العلاء المعري: أيّ الثلاثة أشعر؟ فقال: المتنبي وأبو تمام حكيمان. وإنمّا الشاعر البحتريّ. ولد بمنبج (بين حلب والفرات) وتوفيّ فيها. له ديوان شعر وكتاب «الحماسة».

أَيُّهَا ٱلدَّهْرُ حَبَّذَا أَنْتَ دَهْرًا ... قِفْ حَمِيدًا وَلاَ تُوَلِّ حَمِيدَا

كُلَّ يَوْمٍ تَزدادُ حُسْنًا فَمَا تَبْعَثُ يَومًا إلاَّ حَسِبْنَاهُ عِيدَا

ذَهَبَتْ طَيِّئٌ بِسَابِقَةِ ٱلْمَجْدِ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ بَأْسًا وَجُودَا

مَعْشَرٌ أَمْسَكَتْ حُلُومُهُمُ ٱلأَرْ ... ضَ وَكادَتْ مِن عِزِّهِمْ أَنْ تَمِيدَا

نَزَلُوا كَاهِلَ ٱلْحِجَازِ فَأَضْحَى ... لَهُمُ سَاكِنُوهُ طُرًّا عَبِيدَا

بَلَدٌ يُنْبِتُ ٱلْمَعَالِي فَمَا يَثَّغِرُ[1] ٱلطِفْلُ فِيهِ حَتَّى يَسُودَا

وَلُيُوثٌ مِنْ طَيِّىءٍ وَغُيُوثٌ ... لَهُمُ ٱلْمَجْدُ طَارِفًا وَتَلِيدَا

فَإِذَا ٱلْمَحْلُ جَاءَ جَاءُوا سُيُولًا ... وَإِذَا ٱلنَّقْعُ ثَارَ ثَارُوا أُسُودَا

(١) اثغر الطفل: نبت ثغره وهو الأسنان او مقدّمها.

يَحْسُنُ ٱلذِّكْرُ عَنْهُمُ وَٱلأَحَادِيثُ إِذَا حَدَّثَ ٱلْحَدِيدُ ٱلْحَدِيدَا

مَعْشَرٌ يُنْجِزُونَ بِٱلْخَيْرِ وَٱلشَّرِّ يَدَ ٱلدَّهْرِ مَوْعِدًا وَوَعِيدَا

مَلَكُوا ٱلأَرضَ قَبْلَ أَنْ تُمْلَكَ ٱلأَر ضُ وَقَادُوا فِي حَافَتَيْهَا ٱلْجُنُودَا

بِمَسَاعٍ مَنْظُومَةٍ أَلْبَسَتْهُنَّ ٱللآلِي قَلاَئِدًا وَعُقُودَا

سَائِلِ ٱلدَّهْرَ مُذْ عَرَفْنَاهُ هَلْ يَعْرِفُ مِنَّا إِلاَّ ٱلْفَعَالَ ٱلْحَمِيدَا

قَدْ لَعَمْرِي رُزْنَاهُ كَهْلًا وَشَيْخًا وَرَأَيْنَاهُ نَاشِئًا وَوَلِيدَا

وَطَوَيْنَا أَيَّامَهُ وَلَيَا لِيهِ عَلَى ٱلْمَكْرُمَاتِ بِيضًا وَسُودَا

لَمْ نَزَلْ قَطُّ مُذْ تَرَعْرَعَ نَكْسُو هُ نَدًى لَيِّنًا وَبَأْسًا شَدِيدَا

فَهْوَ مِنْ مَجْدِنَا يَرُوحُ وَيَغْدُو فِي عُلًى لاَ تَبِيدُ حَتَّى يَبِيدَا

عَبْدُ شَمْسٍ شَمْسُ ٱلْعَرِيبِ أَبُونَا مَلَكَ ٱلنَّاسَ وَٱصْطَفَاهُمْ عَبِيدَا

وَطِئَ ٱلسَّهْلَ وَٱلْحُزُونَةَ بِٱلأَبْطَالِ شُعْثًا وَٱلْخَيْلِ قُبًّا وَقُودَا(1)

نَحْنُ أَبْنَاءَ يَعْرِبٍ أَعْرَبُ ٱلنَّا سِ لِسَانًا وَأَنْضَرُ ٱلنَّاسِ عُودَا

وَكَأَنَّ ٱلإِلٰهَ قَالَ لَنَا فِي ٱلْحَرْبِ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدَا

★ ★ ★

---

(1) الحزونة: غلاظة الأرض وشدتها. والقُبّ: جمع الأقبّ، وهو من الخيل الدّقيق الخصر الضامر البطن. القُود: جمع أقود، وهو من الخيل الذلول المنقاد.

أبو تمّام

هو حبيب بن أوس الطائي (١٨٨ هـ/ ٨٠٤م - ٢٣١ هـ/ ٨٤٦م) شاعر مجيد وأحد أمراء البيان. كان أسمر طويلًا، فصيحًا، حلو اللسان، يحفظ أربعة آلاف أرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقاطيع. له تصانيف منها: «فحول الشعراء»، و«ديوان الحماسة».

أَنَا ٱبْنُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَرْضَعَ ٱلْجُودُ فِيهِمِ ... وَقَدْ سَادَ فِيهِمْ وَهْوَ كَهْلٌ وَيَافِعُ

نُجُومٌ طَوَالِيعٌ جِبَالٌ فَوَارِعُ ... غُيُوثٌ هَوَامِيعٌ سُيُولٌ دَوَافِعُ

مَضَوْا وَكَأَنَّ ٱلْمَكْرُمَاتِ لَدَيْهِمِ ... لِكَثْرَةِ مَا أُوصُوا بِهِنَّ شَرَائِعُ

فَأَيُّ يَدٍ فِي ٱلْمَحْلِ مُدَّتْ فَلَمْ يَكُنْ ... لَهَا رَاحَةٌ مِنْ جُودِهِمْ وَأَصَابِعُ

هُمُ ٱسْتَوْدَعُوا ٱلْمَعْرُوفَ مَحْفُوظَ مَالِنَا ... فَضَاعَ وَمَا ضَاعَتْ لَدَيْنَا ٱلْوَدَائِعُ

بَهَالِيلُ لَوْ عَايَنْتَ فَيْضَ أَكُفِّهِمْ ... لأَيْقَنْتَ أَنَّ ٱلرِّزْقَ فِي ٱلأَرْضِ وَاسِعُ

إِذَا خَفَقَتْ بِٱلْبَذْلِ أَرْوَاحُ جُودِهِمْ ... حَدَاهَا ٱلنَّدَى وَٱسْتَنْشَقَتْهَا ٱلْمَطَامِعُ

رِيَاحٌ كَرِيحِ ٱلْعَنْبَرِ ٱلْغَضِّ فِي ٱلنَّدَى ... وَلٰكِنَّهَا يَوْمَ ٱللِّقَاءِ زَعَازِعُ

هِيَ ٱلسَّمُّ مَا تَنْفَكُّ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ ... تَسِيلُ بِهِ أَرْمَاحُهُمْ وَهْوَ نَاقِعُ

أَصَارَتْ لَهُمْ أَرْضَ ٱلْعَدُوِّ قَطَائِعًا ... نُفُوسٌ لِحَدِّ ٱلْمُرْهَفَاتِ قَطَائِعُ

بِكُلِّ فَتًى مَا شَابَ مِنْ رَوْعٍ وَقْعَةٍ وَلٰكِنَّهُ قَدْ شِبْنَ مِنْهُ ٱلْوَقَائِعُ
إِذَا مَا أَغَارُوا فَٱحْتَوَوْا مَالَ مَعْشَرٍ أَغَارَتْ عَلَيْهِمْ فَٱحْتَوَتْهُ ٱلصَّنَائِعُ
فَتُعْطِي ٱلَّذِي تُعْطِيهِمِ ٱلْخَيْلُ وٱلْقَنَا أَكُفٌّ لإِرْثِ ٱلْمَكْرُمَاتِ مَوَانِعُ
هُمُ قَوَّمُوا دَرْءَ ٱلشَّآمِ وَأَيْقَظُوا بِنَجْدٍ عُيُونَ ٱلْحَرْبِ وَهْيَ هَوَاجِعُ
يَمُدُّونَ بِٱلْبِيضِ ٱلْقَوَاطِعِ أَيْدِيًا وَهُنَّ سَوَاءٌ وَٱلسُّيُوفُ ٱلْقَوَاطِعُ
إِذَا أَسَرُوا لَمْ يَأْسِرِ ٱلْبَغْيُ عَفْوَهُمْ وَلَمْ يُمْسِ عَانٍ فِيهِمِ وَهْوَ كَانِعُ
إِذَا أَطْلَقُوا عَنْهُ جَوَامِعَ غُلِّهِ تَيَقَّنَ أَنَ ٱلْمَنَّ أَيْضًا جَوَامِعُ
وَإِنْ صَارَعُوا عَنْ مَفْخَرٍ قَامَ دُونَهُمْ وَخَلَّفَهُمْ بِٱلْجِدِّ جِدٌّ مُصَارِعُ
فَكَمْ شَاعِرٍ قَدْ رَامَنِي فَقَذَعْتُهُ بِشِعْرِيَ وَهْوَ ٱلْيَوْمَ خَزْيَانُ ضَارِعُ
كَشَفْتُ قِنَاعَ ٱلشِّعْرِ عَنْ حُرِّ وَجْهِهِ فَطَيَّرْتُهُ عَنْ فِكْرِهِ وَهْوَ وَاقِعُ
بِعِزٍّ يَرَاهَا مَنْ يَرَاهَا بِسَمْعِهِ وَيَدْنُو إِلَيْهَا ذُو ٱلْحِجَى وَهْوَ شَاسِعُ
يَوَدُّ وِدَادًا أَنَّ أَعْضَاءَ جِسْمِهِ إِذَا أُنْشِدَتْ شَوْقًا إِلَيْهَا ٱلْمَسَامِعُ

★ ★ ★

إِنْ كَانَ غَيَّرَكَ ٱلإِثْرَاءُ وَٱلنِّعَمُ فَلَنْ يُغَيِّرَنِي عَنْ مَحْتِدِي ٱلْعَدَمُ
إِذَا أَنَاخَ عَلَيَّ ٱلدَّهْرُ كَلْكَلَهُ قَرَاهُ صَبْرًا وَعَزْمًا مِنِّيَ ٱلْكَرَمُ
وَإِنْ عَلَتْنِيَ مِنْ أَزْمَانِهِ ظُلَمُ صَبَّرْتُ نَفْسِيَ حَتَّى تُكْشَفَ ٱلظُّلَمُ

★ ★ ★

الأبيورديّ

هو محمد بن أحمد بن محمد القرشيّ الأمويّ (٠٠٠-٥٠٧هـ/١١١٣هـ) شاعر عالي الطبقة. مؤرّخ، عالم بالأدب. ولد في أبيورد بخراسان. ومات مسمومًا في أصبهان كهلًا. من كتبه «تاريخ أبيورد»، و«المختلف والمؤتلف» في الأنساب، و«أنساب العرب»، و«ديوان شعر».

★ ★ ★

لَوَيْتُ عَلَى ٱلرُّمْحِ ٱلرُّدَيْنِيِّ مِعْصَمَا ... وَزُرْتُ ٱلْعِدَى وَٱلْحَرْبُ فَاغِرَةٌ فَمَا

وَقَدْ زَعَمُوا أَنِّي أَلِينُ عَرِيكَتِي ... لَهُمْ إِذْ تَوَسَّطْتُ ٱلْخَصَاصَةَ[1] مُعْدِمَا

أَمَا عَلِمُوا أَنِّي وَإِنْ كُنْتُ مُقْتِرًا ... أُرَوِّي مِنَ ٱلْقِرْنِ ٱلْحُسَامَ ٱلْمُصَمِّمَا

وَيَشْرُقُ وَجْهِي حِينَ يُنْسَبُ وَالِدِي ... وَتَلْقَى عَلَيْهِ لِلسِّيَادَةِ مِيسَمَا

وَإِنْ ذَكَرُوا آبَاءَهُمْ فَوُجُوهُهُمْ ... تُشَبِّهُهَا قِطْعًا مِنَ ٱللَّيْلِ مُظْلِمَا

وَلَلْفَقْرُ خَيْرٌ مِنْ أَبٍ ذِي دَنَاءَةٍ ... إِذَا هُزَّ لِلْفَخْرِ ٱبْنُهُ عَادَ مُفْحَمَا

مَتَى حَصَلَتْ أَنْسَابُ قَيْسٍ وَخِنْدِفٍ ... فَلِي مِنْ رَوَابِيهِنَّ أَشْرَفُ مُنْتَمَى

وَإِنْ نُشِرَتْ مِنْهَا صَحِيفَةُ نَاسِبٍ ... رَأَيْتَ بُدُورًا مِنْ جُدُودِي وَأَنْجُمَا

---

(١) الخصاصة الفقر وضيق الحال. وتوسطها جلس في وسطها.

لهَـمْ أوْجُـهٌ عِنْـدَ ٱلْفَخَـارِ يَـزِينُهَـا عَرَانِينُ[1] مَا شَمَّتْ هَوَانًا وَمَـرْغَمَـا
فَإِنَّ ٱلْمَنَايَـا حِيـنَ يَضْمُـرْنَ[2] غُلَّـةً لِيَلْعَقْنَ مِنْ أَطْرَافِ أَرْمَاحِنَـا ٱلـدِّمَـا

★ ★ ★

النَّاسُ مِنْ خَوَلِي وَٱلدَّهْرُ مِنْ خَدَمِـي وَقُمَّةُ ٱلنَّجْمِ عِنْدِي مَوْطِـئُ ٱلْقَـدَمِ
وَلِلْبَيَانِ لِسَـانِـي وَٱلنَّـدَى خَضِـلٌ[3] بِهِ يَدِي وَٱلْعُلَى يُخْلَقْنَ مِـنْ شِيَمِـي
وَٱلنَّسْرُ يَتْبَـعُ سَيْفِـي حِيـنَ يَلْحَظُـهُ وَٱلدَّهْرُ يُنْشِدُ مَـا يَهْمِـي بِـهِ قَلَمِـي
فَأَيْنَ مِثْلُ أَبـي فـي ٱلْعُـرْبِ قَـاطِبَـةً وَمَنْ كَخَـالِـيَ فـي صُيَّابَةِ[4] ٱلْعَجَـمِ
لَوْ صِيغَتِ ٱلأَرْضُ لِي دُونَ ٱلْوَرَى ذَهَبًـا لَـمْ تَـرْضَهَـا لِمُـرَجِّي نَـائِـلٍ هِمَمـي
وَعَنْ قَلِيلٍ أُرَى فـي مَـأْزِقٍ حَـرِجٍ بِهِ تُشَامُ ٱلسُّرَيْجِيَّـاتُ فِـي ٱلْـقِمَـمِ
وَٱلْبِيـضُ مُـرْدَفَـةٌ تَبْـدُو خَلَاخِلُهَــا فِي مَسْلَـكٍ وَحِـلٍ مِـنْ عَبْـرَةٍ وَدَمِ
فَٱلْمَجْدُ في صَهَوَاتِ ٱلْخَيْلِ مَطْلَبُـهُ وَٱلْعِزُّ في ظُبَةِ ٱلصَّمْصَامَـةِ ٱلْخَـذِمِ

★ ★ ★

قَضَتْ وَطَرًا مِنِّي ٱللَّيَالِـي فَلَـم أَبُـحْ بِشَكْوَى وَلَـمْ يَـدْنَسْ عَلَـيَّ قَمِيـصُ
أُغَالِي بِعِـرْضِـي وَٱلنَّـوَائِـبُ تَعْتَـرِي وَغَيْرِي يَبِيعُ ٱلْعِرضَ وَهْـوَ رَخِيـصُ
عَجِبْتُ لِمَن يَبْغِي مَدَايَ وَقَـدْ رَأَى مَسَاحِبَ ذَيْلِي فَوْقَ هَـامِ ٱلْفَـرَاقِـدِ

---

(١) العرانين جمع عرنين وهو الانف.
(٢) اي يهزلن من العطش.
(٣) الخضل المبتل والندي.
(٤) الصّيّابة: الجماعة من الناس.

وَلِـي نَسَـبٌ فـي ٱلْحَـيِّ عَـالٍ يَفَـاعُــهُ   رَحِيبُ مَسَارِي ٱلْعِرقِ زَاكِي ٱلمَحَاتِدِ [1]

وَفِيَّ مِنَ ٱلْفَضْلِ ٱلَّذِي لَـو ذَكَـرتُـهُ   كَفَـانِــيَ أَنْ أُزْهَـى بِجَـدٍّ وَوَالِدِ

وَرِثْنَا ٱلْعُلَى وَهْيَ ٱلَّتِي خُلِقَتْ لَنَـا   وَنَحْـنُ خُلِقْنَـا لِلْعُلَـى وَٱلْمَحَـامِـدِ

أَبًا فَـأَبًـا مِـن عَبْـدِ شَمْسٍ وَهٰكَـذَا   إِلَـى آدَمٍ لَـمْ يَنْمِنَـا غَيْـرُ مَـاجِـدِ

★ ★ ★

(1) اليفاع: التل وما ارتفع من الأرض. العرق: الأصل. المحاتد: جمع محتد، وهو الأصل.

الطغرائيّ

هو الحسين بن عليّ بن محمد بن عبد الصمد (٤٥٥ هـ/١٠٦٣ م-٥١٣ هـ/١١٢٠ م) شاعر من الوزراء الكتاب. ولد بأصبهان. اتُّهم بالزندقة، فقتله السلطان محمود بن محمد السلجوقيّ. ونسبة الطغرائيّ إلى الطغراء. له «ديوان شعر» وأشهر شعره لاميّة العجم. ومن فخره:

أَبَى الله أَنْ أَسْمُو بِغَيْرِ فَضَائِلِي ... إِذَا مَا سَمَا بِٱلْمَالِ كُلُّ مُسَوَّدِ

وَإِنْ كَرُمَتْ قَبْلِي أَوَائِلُ أُسْرَتِي ... فَإِنِّي بِحَمْدِ الله مَبْدأُ سُؤْدُدِي

يُذَمُّ لأَجْلِي ٱلْمُهْرُ إِنْ يَكْبُ مَرَّةً ... بِجِدِّي وَإِنْ يَنْهَضْ بِجِدِّيَ يُحْمَدِ

وَمَا مَنْصِبٌ إِلاَّ وَقَدْرِيَ فَوْقَهُ ... وَلَوْ حُطَّ رَحْلِي بَيْنَ نَسْرٍ وَفَرْقَدِ

إِذَا شَرُفَتْ نَفْسُ ٱلْفَتَى زَادَ قَدْرُهُ ... عَلَى كُلِّ أَسْنَى مِنْهُ ذِكْرًا وَأَمْجَدِ

كَذَاكَ حَدِيدُ ٱلسَّيْفِ إِنْ يَصْفُ جَوْهَرًا ... فَقِيمَتُهُ أَضْعَافُهُ وَزْنَ عَسْجَدِ

تَكَادُ تَرَى مَنْ لاَ يُقَاسُ نِجَادُهُ ... بِشِسْعِي إِذَا مَا ضَمَّنَا صَدْرُ مَشْهَدِ

وَمَا ٱلْمَالُ إِلاَّ عَارَةٌ مُسْتَرَدَّةٌ ... فَهَلاَّ بِفَضْلِي كَاثَرُونِي وَمَحْتِدِي

إِذَا لَمْ يَكُنْ لِي فِي ٱلْوِلاَيَةِ بَسْطَةٌ ... يَطُولُ بِهَا بَاعِي وَتَسْطُو بِهَا يَدِي

وَلاَ كَانَ لِي حُكْمٌ مُطَاعٌ أُجِيزُهُ ... فَأُرْغِمَ أَعْدَائِي وَأَكْبِتَ حُسَّدِي

فَأُعْذَرُ إنْ قَصَّرْتُ فـي حَـقِّ مُجْتَـدٍ ... وَآمَـنُ أَنْ يَعْتَـادَنِـي كَيْـدُ مُعْتَـدِ

أأُكْفَى وَلاَ أَكْفِـي وَتِلْـكَ غَضَـاضَـةٌ ... أَرَى دُونَهَـا وَقْـعَ ٱلْحُسَـامِ ٱلْمُهَنَّـدِ

وَلَـوْلاَ تَكَـالِيـفُ ٱلْعُلَـى وَمَغَـارِمٌ ... ثِقَالٌ وَأَعْقَابُ ٱلأَحَـادِيـثِ فِـي غَـدِ

لأَعْطَيْتُ نَفْسِي في ٱلتَّخَلِّي مُـرَادَهـا ... فَذَاكَ مُرَادِي مُذْ نَشَـأْتُ وَمَقْصَـدِي

مِنَ ٱلْحَزْمِ أَنْ لاَ يَضْجَرَ ٱلْمَرْءُ بِٱلَّذِي ... يُعَـانِيـهِ مِـنْ مَكْـرُوهَـةٍ فَكَـأَنْ قَـدِ

إِذَا جَلَدِي في ٱلأَمرِ خَانَ وَلَمْ يُعِـنْ ... مَرِيرَةَ عَـزْمِـي نَـابَ عَنْـهُ تَجَلُّـدِي

وَمَنْ يَسْتَعِـنْ بِـٱلصَّبْـرِ نَـالَ مُـرَادَهُ ... وَلَـوْ بَعْـدَ حِيـنٍ إِنَّـهُ غَيْـرُ مُسْعَـدِ

★ ★ ★

لامية العجمْ للطغرائي

أصالة الرَّأْيِ ، صانَتني عَـن الخطـلِ ... وحِليةُ الفضلِ ، زانتني لَـدى العَطلِ [1]

مجدي أخيراً ، ومجدي أوَّلا ، شَـرَعٌ ... والشمسُ رأدَ الضُّحى كالشمسِ في الطفلِ [2]

فيمَ الإقـامـةُ بـالـزوراء ، لا سكَنـي ... بها ، ولا ناقتـي فيهـا ، ولا جَمَلـي؟

ناءٍ عنِ الأهلِ صَفرُ الكـفِّ مُنفَـردٌ ... كالسَّيـف عُـرِّيَ مَتنـاهُ مِـن الخِلَـلِ

فلا صَـديـقٌ إليـهِ مُشتكـى حـزنـي ... ولا أنيسٌ اليـهِ مُنتهـى جَـذَلـي

أُريـدُ بسطـةَ كَـفٍّ أستعيـنُ بهـا ... علـى قضـاء حقـوقٍ للعلـى ، قبلـي

والدّهـرُ يَعكِسُ آمـالـي ، ويُقنعُنـي ... مـن الغنيمـةِ بعـدَ الكـدِّ ، بـالقفَـلِ

---

(١) العطَل : الخلوّ من زينة العمل .

(٢) الطفل : آخر النهار .

حُبُّ السلامَةِ يَثني همَّ صاحبِهِ — عَن المعالي ويُغري المرءَ بالكَسَلِ

فإن جَنَحتَ اليهِ، فاتَّخِذ نفقًا — في الأرضِ أو سُلَّمًا في الجَوِّ فاعتَزِلِ

وَدعْ غمارَ العُلى للمُقدمينَ على — رُكوبها، واقتنِع مِنهُنَّ بالبلَلِ

فادرأ بها في نحورِ البيدِ حافِلةً — مُعارضاتٍ مَثاني اللُّجمِ بالجُدَلِ

إنَّ العُلى حَدَّثتني، وهيَ صادقةٌ — فيما تُحدّثُ: أنَّ العزَّ في النُّقَلِ

لو أنَّ في شَرَف المأوى بُلوغَ مُنًى — لم تبرح الشمسُ، يومًا، دارة الحَمَلِ

أعدى عَدُوِّكَ أدنى مَن وثِقت بهِ، — فحاذِر النَّاس، واصحَبهم على دَخَلِ

وإنما رَجُلُ الدُّنيا، وواحِدُها، — مَن لا يُعوِّلُ، في الدُّنيا، على رَجُلِ

غاضَ الوفاءُ، وفاض الغَدرُ، وانفرجت — مَسافَةُ الخُلف بَينَ القَولِ والعَمَلِ

وحُسنُ ظَنكَ بالأيامِ مَعجَزَةٌ، — فظُنَّ شَرًّا وكن مِنها على وَجَلِ

وشانَ صِدقَك، عِندَ النَّاسِ، كذبُهُمُ — وهل يُطابَقُ مُعوَجٌّ بمُعتَدِلِ؟

إن كانَ يَنجَعُ شيءٌ في ثَباتِهِمُ — على العُهودِ، فسَبَقُ السَّيفِ للعَذَلِ

يا واردًا سُورَ عيش، كلهُ كدَرٌ، — أنفقتَ عمركَ في أيامك الأول!

فيمَ اعتراضُكَ لُجَّ البحر تركبهُ، — وأنتَ يَكفيكَ مِنهُ مَصةُ الوَشَلِ؟

ملك القناعة لا يُخشى عليه، ولا — تَحتاج فيهِ إلى الأنصار والخول

رجو البقاء بدار لا ثبات لها؛ — فهل سمِعتَ بظلٍ غيرِ منتقل؟

ويا خبيرا، على الأسرار مطلعًا، — أنصِت، ففي الصمت مَنجاةٌ من الزَّلل

قد رشَّحوك لأمرٍ، ان فطنت له، — فاربأ بنفسك أن ترعى معَ الهمَل

أهَبتُ بالحظِّ، لو ناديتُ مُستَمِعًا، — والحَظُّ عَنيَ، بالجُهّال، في شُغُلِ

لعلـهُ إن بـــدا فَضلــي ونَقصُهُـــمُ لعَينـه، نـامَ عنهُـم، أو تَنبَّـهَ لـــي

أُعَلِّلُ النفْسَ بـــالآمـــالِ أَرقبُهـــا؛ ما أضيَقَ العَيشَ لولا فُسحةُ الأمـلِ!

لـم أرتـضِ العَيش، والأيّـامُ مُقبِلـةٌ فكَيفَ أرضى، وقد ولَّت على عَجلِ؟

غَـالـى بنَفسـيَ عِـرفـانـي بقيمتها، فصُنتُها عَن رَخِيص القَدر، مبتــذلِ

وعادةُ النَّصلِ أن يَزهُـو بجَـوهـرِهِ، وليس يَعمَـل إلاّ فـي يَـدي بَطَــلِ

ما كنتُ أُوثِرُ أن يَمتَـد بـي زَمنـي، حتـى أرى دولـة الأوغـاد والسَّفـل!

تقـدَّمتنـي أُنـاسٌ، كـان شـوطُهـمُ وراءَ خطوي، إذا أمشي على مَهَــل

هذا جزاءُ امـرىءٍ أقـرانُـهُ درجـــوا مـن قبلـه، فتمنـى فُسحـة الأجـل!

وإن علانيَ مَن دونـي، فلا عجـبٌ، لي أُسوةٌ بانحطاط الشمس عن زحـل!

فاصبر لها غَير مُحتالٍ، ولا ضجـرٍ في حادثِ الدهر ما يُغني عن الحِيَــلِ

★ ★ ★

الشريف الرَّضيّ

هو محمد بن الحسن بن موسى (٣٥٩هـ/٩٧م-٤٠٦هـ/١٠١٥م) أشعر الطالبيين على كثرة المجيدين فيهم. مولده ووفاته ببغداد. كان والده يتولّى نقابة الأشراف الطالبيّين وإمارة الحجّ بالناس، والنظر في المظالم. وانتقلت إليه نقابة الأشراف في حياة والده. ولمّا كان متولّيًا إمارة الحجّ شهد مواسم العيد، وفيها النساء الوافدات من جميع البلدان، فحرَّك المشهد أوتار قلبه، فنظم تلك القصائد الشهيرة في الغزل العفيف، وقد عُرفت بالحجازيّات.

إباء

مَا مُقَامِي عَلَى ٱلْهَوَانِ، وَعِنْدِي ... مِقْوَلٌ صَارِمٌ، وَأَنْفٌ حَمِيٌّ!

وَإِبَاءٌ مُحَلِّقٌ بي عَنِ ٱلضَّيْمِ ... كَمَا رَاغَ طَائِرٌ وَحْشِيٌّ[1]

أيُّ عُذْرٍ لَهُ إلَى ٱلْمَجْدِ، إنْ ذَلَّ ... غُلَامٌ فِي غِمْدِهِ ٱلْمَشْرِفيُّ؟

أَلْبِسُ ٱلذُّلَّ في دِيَارِ ٱلأَعَادِي ... وَبِمِصْرَ ٱلْخَلِيفَةُ ٱلْعَلَوِيُّ

مَنْ أَبُوهُ أَبِي، وَمَوْلَاهُ مَوْلَا ... يَ إذَا ضَامَنِي ٱلْبَعِيدُ ٱلْقَصِيُّ[2]

---

(١) راغ: نفر.

(٢) ابوه: اي جده الرسول. مولاه: اي الامام علي.

لَفَّ عِرْقي بِعِرْقِهِ سَيِّدُ ٱلنَّاسِ ... جَمِيعًا مُحَمَّدٌ، وَعَلِيُّ
إنَّ ذُلِّيَ بِذٰلِكَ ٱلْجَوِّ عِزٌّ ... وَأُوَامِي بِذٰلِكَ ٱلنَّقْعِ رِيُّ[1]
قَدْ يَذِلُّ ٱلْعَزِيزُ مَا لَمْ يُشَمِّرْ ... لاَنْطِلاَقٍ، وقَدْ يُضَامُ ٱلأَبِيُّ!
إنَّ شَرًّا عَلَيَّ إسْرَاعُ عَزْمِي ... في طِلاَبِ ٱلْعُلَى، وَحَظِّي بَطِيُّ
أَرْتَضِي بِٱلأَذَى، وَلَمْ يَقِفِ ٱلْعَزْمُ ... قُصُورًا، وَلَمْ تَعِزَّ ٱلْمَطِيُّ
تَارِكًا أُسْرَتِي رُجُوعًا إلَى حَيْثُ ... عَذِيرِي قَدٌّ، وَرَعْيٌ وَبِيُّ[2]
كَٱلَّذي يَخْبِطُ ٱلظَّلاَمَ، وَقَدْ ... أَقْمَرَ مِنْ خَلْفِهِ ٱلنَّهَارُ ٱلْمُضِيُّ!

★ ★ ★

عقل وقلب

لِغَيْرِ ٱلْعُلَى مِنِّي ٱلقِلَى وٱلتَّجَنُّبُ ... وَلَوْلا ٱلعُلَى مَا كُنْتُ في ٱلحُبِّ أَرْغَبُ[3]
إذَا الله لَمْ يَعْذُرْكَ فِيمَا تَرُومُهُ ... فَمَا ٱلنَّاسُ إلاَّ عَاذِلٌ وَمُؤَنِّبُ
مَلَكْتُ بِحِلْمِي فُرْصَةً مَا ٱسْتَرَقَّهَا ... مِنَ ٱلدَّهْرِ مَفْتُولُ ٱلذِّرَاعَيْنِ أَغْلَبُ[4]
فَإنْ تَكُ سِنِّي مَا تَطَاوَلَ بَاعُهَا ... فَلِي مِنْ وَرَاءِ ٱلْمَجْدِ قَلْبٌ مُذَرَّبُ[5]
فَحَسْبِيَ أَنِّي في ٱلأَعَادِي مُبَغَّضٌ ... وَأَنِّي إلَى غُرِّ ٱلْمَعَالِي مُحَبَّبُ

---

(١) الأوام: العطش. الري: الشرب.
(٢) العذير: النصير. القد: الوسط. الوبي: الكثير الوباء.
(٣) القلى: البغض.
(٤) استرقها: نالها. الاغلب: القوي الذي يغلب خصمه.
(٥) المذرب: الماضي.

وَلِلْحِلْمِ أَوْقَاتٌ، وَلِلْجَهْلِ مِثْلُهَا وَلٰكِنَّ أَيّامي إلى ٱلْحِلْمِ أَقْرَبُ[1]

يَصُولُ عَلَيَّ ٱلْجَاهِلُونَ، وَأَعْتَلِي وَيُعْجِمُ فيَّ ٱلْقَائِلُونَ، وَأُعْرِبُ[2]

يَرَوْنَ ٱحْتِمَالي غُصَّةً وَيَزِيدُهُمْ لَوَاعِجَ ضِغْنٍ أَنَّني لَسْتُ أَغْضَبُ

وَأُعْرِضُ عَنْ كَأْسِ ٱلنَّدِيمِ كَأَنَّهَا وَمِيضُ غَمَامٍ غَائِرِ ٱلْمُزْنِ خُلَّبُ[3]

وَقُورٌ فَلاَ ٱلأَلْحَانُ تَأْسِرُ عَزْمَتِي وَلاَ تَمْكُرُ الصَّهْبَاءُ بي حينَ أَشْرَبُ

وَلاَ أَعْرِفُ ٱلْفَحْشَاءَ إلاَّ بِوَصْفِهَا وَلاَ أَنْطِقُ ٱلْعَوْرَاءَ وَٱلْقَلْبُ مُغْضَبُ

تَحَلَّمُ عَنْ كَرِّ ٱلْقَوَارِصِ شِيمَتي كَأَنَّ مُعِيدَ ٱلذَّمِّ بِٱلْمَدْحِ مُطْنِبُ[4]

لِسَاني حَصَاةٌ يَقْرَعُ ٱلْجَهْلَ بِٱلْحِجَى إذَا نَالَ مِنِّي ٱلْعَاضِهُ ٱلْمُتَوَثِّبُ[5]

وَلَسْتُ بِرَاضٍ أَنْ تَمَسَّ عَزَائِمِي فُضَالاتُ مَا يُعْطِي ٱلزَّمانُ وَيَسْلُبُ[6]

غَرَائِبُ آدَابٍ حَبَاني بِحِفْظِهَا زَمَاني وَصَرْفُ ٱلدَّهْرِ نِعْمَ المُؤَدِّبُ

★ ★ ★

أنا الاسد

حَقِيقٌ بِأَنْ لاَيَهْتِكَ ٱلدَّهْرُ ثَوْبَهُ عَلَى ٱلْعَارِ، كَاسٍ مِنَ عَجَاجِ ٱلْمَلاحِمِ[7]

وَأَيْنَ مِنَ ٱلدَّهْرِ ٱسْتِمَاعُ ظُلاَمَتِي إذَا نَظَرَتْ أَيَّامُهُ في ٱلْمَظَالِمِ

---

(١) الجهل: الحمق والاسراع الى الانتقام.

(٢) يعجم: يقول قولا غير واضح، واعرب: عكسها.

(٣) المزن الغائر: السحاب الذاهب. الخلب: الخادع.

(٤) القوارص: الشتائم الشديدة.

(٥) الحصاة: العقل. العاضه: الذي يكذب على المرء في وجهه.

(٦) الفضالات: اي الملاذ الدنيوية.

(٧) العجاج: الغبار.

فَهَلْ نَافِعِي أَنْ يَنْصُرَ ٱلْمَجْدُ عَزْمَتِي، عَلَى هٰذِهِ ٱلْعَلْيَاءِ، وَٱلْمَالُ ظَالِمِي؟
أَنَا ٱلأَسَدُ ٱلْمَاضِي عَلَى كُلِّ فَعْلَةٍ تُمَشِّي شِفَارَ ٱلْبِيضِ فَوْقَ ٱلْجَمَاجِمِ
وَفي مِثْلِهَا أَرْضَيْتُ عَنَ عَزْمَتِي ٱلْمُنَى، وَصَافَحْتُ أَطْرَافَ ٱلْقَنَا وَٱلصَّوَارِمِ
وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ ٱلدَّهْرَ يَخْفِضُ أَهْلَهُ، إِذَا سَكَنَتْ فِيهِمْ نُفُوسُ ٱلضَّرَاغِمِ
وَمَا ٱلْعَيْشُ إِلاَّ فَرْحَةٌ، إِنْ هَجَرْتُهَا، سَطَوْتُ على ٱلدُّنيا بِسَطْوَةِ حَازِمِ
سَأَصْبِرُ حتَّى يَعْلَمَ ٱلصَّبْرُ أَنَّنِي مَلَكْتُ بِهِ دَفْعَ ٱلْخُطُوبِ ٱلْهَوَاجِمِ
وَآخُذُ ثَأْرِي مِنْ زَمَانٍ تَعَرَّضَتْ مَغَارِمُهُ بَيْنِي وَبَيْنَ ٱلْمَغَانِمِ
وَمَا نَامَ إِغْضَاءً عَنِ ٱلدَّهْرِ صَارِمِي، وَلٰكِنَّنِي أُبْقِي عَلَى غَيْرِ رَاحِمِ
وَإِنْ أَنَا أَهْلَكْتُ ٱلزَّمانَ، فَمَا ٱلَّذي يُصَدِّعُ عَزْمِي في صُدُورِ ٱلْعَظَائِمِ؟
يُخَيَّلُ لي أَنَّ ٱلنُّجُومَ ضَمَائِرٌ، تَقَلْقَلُ فِيهِ خَشْيَةً مِنْ عَزَائِمِي
لَقِيتُ ظَلاَمَ ٱللَّيْلِ في لَوْنِ مَفْرِقِي وَفَارَقْتُهُ وَٱلصُّبْحُ في لَوْنِ صَارِمِي
أُجَوِّبُ آجَامَ ٱلْمَنَايَا، وَأُسْدُهَا تُرَوِّعُنِي مِنْ بَيْنِهَا بِٱلْهَمَاهِمِ[1]
وَبَيْنِي وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ مِنْ آلِ يَعْرُبٍ ضَغَائِنُ تَثْنِينِي زَهِيدَ ٱلْمَطَاعِمِ
إِذَا مَا جَنَوْا مِنْ مَالِهِمْ ثَمَرَ ٱلعُلَى، جَنَيْتُ ٱلْمَعَالِي مِنْ غُصُونِ ٱللَّهَاذِمِ[2]
أَغَرَّ بَنِي فِهْرٍ وَعَبْدَ مُجَاشِعٍ وَأَيُّ وَعِيدٍ بَعْدَ وَقْعِ ٱلصَّوَارِمِ[3]
أَيُوعِدُنا مَنْ عَطَّلَ ٱلْبِيضَ وَٱلقَنَا، وَأَقْسَمَ لاَ يَنْجُو بِغَيْرِ ٱلْهِزَائِمِ؟

(١) الهماهم جمع همهمة وهي ترديد الزئير في الصدر.
(٢) اللهاذم جمع لهذم وهو القاطع من الاسنة.
(٣) فهر: الجد الجامع لبني قريش. مجاشع: من بني دارم، بطن من تميم.

عَشِيَّةَ خُضْنَا بِٱلضَّوَامِرِ لَيْلَهُمْ، وَفي كُلِّ جَفْنٍ مِنْهُمُ طَيْفُ حَالِمِ[1]
نُرِيهِمْ صُدُورَ ٱلسُّمْرِ بَيْنَ نُحُورِهِمْ، فَمَا ٱسْتَيْقَظُوا إلاَّ بِقَرْعِ ٱلْحلاَقِمِ[2]
كَأَنَّ ٱلْكَرَى يَقْتَصُّ مِنْ طُولِ نَوْمِهِمْ، فَيُسْهِرُ مِنْهُمْ بِٱلْقَنَا كُلَّ نَائِمِ
وَكُلَّ غُلاَمٍ خَالَطَ ٱلْبَأْسُ قَلْبَهُ، يُقَطِّعُ أَقْرَانَ ٱلأُمُورِ ٱلْغَوَاشِمِ[3]
وَنَحْنُ دَلَفْنَا لِلأَرَاقِمِ فِتْيَةً يُضِيفُونَ أَطْرَافَ ٱلْقَنَا في ٱلْحَيَازِمِ[4]
تَطَلَّعُ مِنْ خَلْفِ ٱلْعَجَاجِ، كَأَنَّمَا تُطَالِعُهُمْ مِنْهَا عُيُونُ ٱلْقَشَاعِمِ[5]
إذَا ٱشْتَجَرَ ٱلضَّرْبُ ٱلدِّرَاكُ، تَمَطَّقَتْ إلى ٱلطَّعْنِ أَفْوَاهُ ٱلنُّسُورِ ٱلْحَوائِمِ[6]
وَوَلَّوْا عَلَى ٱلْخَيْلِ ٱلْعِتَاقِ كَأَنَّهُمْ تَزَاحُمُ غَيْمِ ٱلْعَارِضِ ٱلْمُتَرَاكِمِ[7]
تَفِيضُ عُيُونُ ٱلطَّعْنِ بِٱلدَّمِ مِنْهُمُ، وَيَغْسِلُهَا فَيْضُ ٱلْعُيُونِ ٱلسَّوَاجِمِ

★ ★ ★

الْمَجْدُ يَعْلَمُ أَنَّ ٱلْمَجْدَ مِنْ أَرَبِي وَلَوْ تَمَادَيْتُ في غَيٍّ وَفي لَعِبِ
إنِّي لَمِنْ مَعْشَرٍ إنْ جُمِّعُوا لِعُلًى تَفَرَّقُوا عَنْ نَبِيٍّ أو وَصِيِّ نَبي
إذَا هَمَمْتُ فَفَتِّش عن شَبَا هِمَمِي تَجِدْهُ في مُهَجَاتِ ٱلأَنْجُمِ ٱلشُّهُبِ
وإنْ عَزَمْتُ فَعَزْمي يستحيلُ قَذًى تُدمي مسالِكُهُ في أَعْيُنِ النُّوَبِ

★ ★ ★

(١) الضوامر: الخيول الضامرة، السريعة.
(٢) السمر: الرماح. الحلاقم: جمع حلقوم.
(٣) الاقران: الحبال.
(٤) دلفنا: تقدمنا، وأسرعنا. الاراقم: اي بنو تغلب.
(٥) العجاج: الغبار. القشاعم: النسور المسنة. الحيازم جمع حيزوم وهو الصدر.
(٦) اشتجر: اشتبك. الدراك: الذي يتبع بعضه بعضاً. تمطقت: صوتت بألسنتها.
(٧) العارض: السحاب المعترض في السماء.

الفخر والحماسة في عصر الانحطاط

(١٢٥٨م - ١٧٩٨م)

صفيّ الدين الحلِّي

هو عبد العزيز بن سرايا (٦٧٧ هـ/ ١٢٧٨ م - ٧٥٠ هـ/ ١٣٤٩ م). شاعر عصره، له مؤلَّفات عِدَّة في الشعر، والزجل، والأغلاط اللغويَّة، وغيرها. غزله رقيق، فيه الكثير من المحسِّنات اللفظيَّة والمعنويَّة على غير تكلّف، وفي عبارة سهلة، وخيال طليق، وموسيقى عذبة متراقصة، وعاطفة مشبوبة.

★ ★ ★

سَلِي الرِّماحَ الْعَوَالِي عَنْ مَعَالِينَا ... وَاسْتَشْهِدِي الْبِيضَ هَلْ خَابَ الرَّجا فِينَا

وَسَائِلِي العُرْبَ وَالأَتْرَاكَ مَا فَعَلَتْ ... فِي أَرْضِ قَبْرِ عُبَيْدِاللهِ أَيْدِينَا

لَمَّا سَعَيْنَا فَمَا رَقَّتْ عَزَائِمُنَا ... عَمَّا نَرُومُ وَلاَ خَابَتْ مَسَاعِينَا

يَا يَوْمَ وَقْعَةِ زَوْرَاءِ العِرَاقِ وقَدْ ... دِنَّا الأَعَادِي كَمَا كَانُوا يَدِينُونَا

بِضُمَّرٍ مَا رَبَطْنَاهَا مُسَوَّمَةً ... إلاَّ لِنَغْزُو بِهَا مَنْ بَاتَ يَغْزُونَا

وَفِتْيَةٍ إنْ نَقُلْ أَصْغَوا مَسَامِعَهُمْ ... لِقَوْلِنَا أَوْ دَعَوْنَاهُمْ أَجَابُونَا

قَوْمٌ إذَا اسْتُخْصِمُوا كَانُوا فَرَاعِنَةً ... يَوْمًا وإنْ حُكِّمُوا كَانُوا مَوَازِينَا

تَدَرَّعُوا العَقْلَ جِلْبَابًا فَإِنْ حَمِيَتْ ... نَارُ الوَغَى خِلْتَهُمْ فِيهَا مَجَانِينَا

إذَا ادَّعَوْا جَاءَتِ الدُّنْيَا مُصَدِّقَةً ... وَإنْ دَعَوْا قَالَتِ الأَيَّامُ آمِينَا

إنَّ الزَّرَازِيرَ لَمَّا قَامَ قَائِمُهَا ... تَوَهَّمَتْ أَنَّهَا صَارَتْ شَوَاهِينَا
ظَنَّتْ تَأَنِّي الْبُزَاةِ الشُّهْبِ عَنْ جَزَعٍ ... وَمَا دَرَتْ أَنَّهُ قَدْ كَانَ تَهْوِينَا
ذَلُّوا بِأَسْيَافِنَا طُولَ الزَّمَانِ فَمُذْ ... تَحَكَّمُوا أَظْهَرُوا أَحْقَادَهُمْ فِينَا
لَمْ يُغْنِهِمْ مَالُنَا عَنْ نَهْبِ أَنْفُسِنَا ... كَأَنَّهُمْ فِي أَمَانٍ مِنْ تَقَاضِينَا
ثُمَّ انْثَنَيْنَا وَقَدْ ظَلَّتْ صَوَارِمُنَا ... تَمِيسُ عُجْبًا وَتَهْتَزُّ الْقَنَا لِينَا
وَلِلدِّمَاءِ عَلَى أَثْوَابِنَا عَلَقٌ ... بِنَشْرِهِ عَنْ عَبِيرِ المِسْكِ يُغْنِينَا
إِنَّا لَقَوْمٌ أَبَتْ أَخْلَاقُنَا شَرَفًا ... أَنْ نَبْتَدِي بِالأَذَى مَنْ لَيْسَ يُؤْذِينَا
بِيضٌ صَنَائِعُنَا سُودٌ وَقَائِعُنَا ... خُضْرٌ مَرَابِعُنَا حُمْرٌ مَوَاضِينَا
لاَ يَظْهَرُ العَجْزُ مِنَّا دُونَ نَيْلِ مُنىً ... وَلَوْ رَأَيْنَا المَنَايَا فِي أَمَانِينَا

★ ★ ★

وقال مخمِّسًا قصيدة السَّموأل في الفخر:

قَبِيحٌ بِمَنْ ضاقَتْ عَنِ الرِّزْقِ أَرْضُهُ ... وَطُولُ الفَلا رَحْبٌ عَلَيْهِ وعَرْضُهُ
ولَمْ يُبْلِ سِرْبَالَ الدُّجَى مِنْهُ رَكْضُهُ ... إِذا المَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ
فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ

وعُصْبَةِ غَدْرٍ أَرْغَمَتْهَا جُدُودُنَا ... فَبَاتَتْ ومنها ضِدُّنَا وَحَسُودُنَا
إذا عَجَزَتْ عَنْ فِعْلِ كَيْدٍ يَكِيدُنَا ... تُعَيِّرُنَا أَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا
فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الكِرامَ قَلِيلُ

رَفَعْنَا على هامِ السِّمَاكِ مَحَلَّنَا ... فَلا مَلِكٌ إلاَّ تَفَيَّأَ ظِلَّنَا
فقد خافَ جَيْشُ الأَكْثَرِينَ أَقَلَّنَا ... وما قَلَّ مَنْ كانَتْ بَقَايَاهُ مِثْلَنا
شَبَابٌ تَسَامَى لِلْعُلَى وكُهُولُ

يُـوَازِي الجبـالَ الرَّاسيـاتِ وَقـارُنــا   وَتُبْنَـى عَلَـى هـامِ المَجَـرَّةِ دَارُنــا
وَيُؤْمَنُ مِن صَرْفِ الزَّمـانِ جِـوارُنـا   وَمـا ضَـرَّنـا أَنَّـا قَلِيـلٌ وَجَــارُنــا
عـزِيـزٌ وَجَـارُ الأَكْثَـرِيـنَ ذَلِيــلُ
وَلَمّـا حَلَلْنـا الشَّـأمَ تَمَّـتْ أُمُــورُهُ   لَنَــا وَحَبَــانــا مَلْكُــهُ وَأَمِيــرُهُ
وَبِالنَّيْزَبِ الأَعْلَـى الَّذِي عَـزَّ طُـورُهُ   لَنَـا جَبَــلٌ يَحْتَلُّــهُ مَــنْ نُجِيــرُهُ
مَنِيـعٌ يَـرُدُّ الطَّـرْفَ وَهْــوَ كَلِيــلُ
يُـرِيـكَ الثُّـرَيَّـا مـن خِلالِ شِعـابِـهِ   وَتُحدِقُ شُهْبُ الأُفْقِ حَوْلَ هِضَـابِـهِ
وَيَعْثُرُ خَطْوُ السُّحْبِ دُونَ ارْتِكـابِـهِ   رَسا أَصْلُهُ تَحْـتَ الثَّـرَى وَسَمـا بِـهِ
إِلَـى النَّجْـمِ فَـرْعٌ لا يُنـالُ طَـوِيـلُ
وَقَصْرٌ على الشَّقْرَاءِ قَدْ فـاضَ نَهْـرُهُ   وَفاقَ على فَخْـرِ الكَـواكِـبِ فَخْـرُهُ
وَقَدْ شـاعَ مـا بَيْـنَ البَـرِيَّـةِ شُكْـرُهُ   هُوَ الأَبْلَقُ الفَـرْدُ الَّذِي شـاعَ ذِكْـرُهُ
يَعَـزُّ علَــى مَــنْ رامَــهُ وَيَطُــولُ
إِذا ما غَضِبنا فِي رِضَى الْمَجْدِ غَضْبَـةً   لِنُــدْرِكَ ثــأْرًا أَوْ لِنَبْلُــغَ رُتْبَــةً
نَزِيدُ غَدَاةَ الكَرِّ فِـي المَـوْتِ رَغْبَـةً   وَإِنَّـا لَقَـوْمٌ لا نَـرَى القَتْــلَ سُبَّــةً
إِذَا مــا رَأَتْــهُ عــامِــرٌ وَسَلُــولُ
أَبـادَتْ مُلاقـاةُ الحُـرُوبِ رِجـالَنــا   وعاشَ الأَعادِي حِيـنَ مَلُّـوا قِتـالَنـا
لأَنَّــا إِذا رَامَ العُــدَاةُ نِــزالَنــا   يُقَـرِّبُ حُـبُّ المَـوْتِ آجـالَنـا لَنـا
وَتَكْــرَهُــهُ آجــالُهُــمْ فَتَطُــولُ
فَمِنَّا مُعِيدُ اللَّيْـثِ فِـي قَبْـضِ كَفِّـهِ   وَمُـورِدُهُ فِـي أَسْرِهِ كـأْسَ حَتْفِــهِ

وَمِنَّا مُبِيدُ الأَلْفِ فِي يَوْمِ زَحْفِهِ وَما ماتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ

وَلا طُلَّ يَوْمًا حَيْثُ كانَ قَتِيلُ

إِذَا خافَ ضَيْمًا جارُنا أَوْ جَلِيسُنا فَمِنْ دُونِهِ أَمْوالُنا وَرُؤُوسُنا

وإِنْ أَجَّجَتْ نارَ آلوَقائِعِ شُوسُنا تَسِيلُ عَلَى حَدِّ آلظُّباتِ نُفُوسُنا

وَلَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ آلظُّباتِ تَسِيلُ

جَنَى نَفْعَنا الأَعْداءُ طَوْرًا وَضَرَّنا فَما كانَ أَحْلانا لَهُمْ وَأَمَرَّنا

وَإِذْ خَطَبُوا قِدْمًا صَفانا وَبِرَّنا صَفَوْنا وَلَمْ نَكْدُرْ وَأَخْلَصَ سِرَّنا

إِناثٌ أَطَابَتْ حَمْلَنا وَفُحُولُ

لَقَدْ وَفَتِ الْعَلْياءُ فِي الْمَجْدِ قِسْطَنا وَما خالَفَتْ فِي مَنْشإِ آلأَصْلِ شَرْطَنا

فَإِذْ حاوَلَتْ فِي ساحَةِ آلعِزِّ هَبْطَنا عَلَوْنا إِلَى خَيْرِ آلظُّهورِ وَحَطَّنا

لِوَقْتٍ إِلَى خَيْرِ آلْبُطُونِ نُزُولُ

تُقِرُّ لَنا آلأَعداءُ عِندَ آنْتِسابِنا وَتَخْشَى خُطُوبُ الدَّهْرِ فَصْلَ خِطابِنا

لَقَدْ بالَغَتْ أَيْدِي آلْعُلَى فِي آنْتِخابِنا فَنَحْنُ كَماءِ آلْمُزْنِ ما فِي نِصابِنا

كَهامٌ وَلاَ فِينا يُعَدُّ بَخِيلُ

نُغِيثُ بَنِي آلدُّنْيا وَنَحْمِلُ هَوْلَهُمْ كَما يَوْمُنا فِي آلْعِزِّ يَعْدِلُ حَوْلَهُمْ

نَطُولُ أُناسًا تَحْسُدُ السُّحْبُ طَوْلَهُمْ وَنُنْكِرُ إِنْ شِئْنا عَلى آلنَّاسِ قَوْلَهُمْ

وَلا يُنْكِرُونُ آلقَوْلَ حِينَ نَقُولُ

لأَشْياخِنا سَعْيٌ بِهِ آلْمُلْكَ أَيَّدُوا وَمِنْ سَعْيِنا بَيْتُ آلْعَلاءِ مُشَيَّدُ

فَلا زالَ مِنّا فِي الدُّسُوتِ مُؤَيَّدُ إِذا سَيِّدٌ مِنَّا خَلا قامَ سَيِّدُ

قَؤُولٌ لِمَا قالَ الكِرَامُ فَعُولُ

سَبَقْنا إلَى شأْوِ ٱلعُلَى كُلَّ سابِقِ وَعَمَّ عَطانا كُلَّ راجٍ ووامِقِ
فَكَمْ قَدْ خَبَتْ فِي ٱلْمَحْلِ نارُ مُنافقِ وَما أُخْمِدَتْ نارٌ لَنا دُونَ طارِقِ
وَلا ذَمَّنا فِي النَّازِلِينَ نَزِيلُ

عَلَوْنا فَكانَ ٱلنَّجْمُ دُونَ عُلُوِّنا وسامَ ٱلعُدَاةَ ٱلْخَسْفَ فَرْطُ سُمُوِّنا
فَماذا يَسُرُّ ٱلضِّدَّ فِي يَوْمِ سُوِّنا وأَيَّامُنا مَشْهورَةٌ فِي عَدُوِّنا
لَها غُرَرٌ مَعْلُومَةٌ وحُجُولُ

لَنا يومَ حَرْبِ ٱلخَارِجيِّ وتَغْلِبِ وَقائعُ فَلَّتْ لِلظُّبى كُلَّ مَضْرَبِ
فأَحْسابُنا مِنْ عَهْدِ فِهْرٍ ويَعرُبِ وأَسْيافُنا فِي كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبِ
بِها مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ

أَبَدْنا ٱلأَعادِي حِينَ ساءَتْ فِعالُها فَعادَ عَلَيْها كَيْدُها وَنَكالُها
بِبِيضٍ جَلا لَيلَ ٱلْعَجاجِ صِقالُها مُعَوَّدَةٍ أَنْ لا تُسَلَّ نِصالُها
فَتُغْمَدَ حَتَّى يُسْتَباحَ قَتِيلُ

هُمُ هَوَّنُوا قَدْرَ ٱلَّذي لَمْ يُهِنْهُمُ وَخانُوا غَداةَ ٱلسِّلْمِ مَنْ لَمْ يَخُنْهُمُ
فإِنْ شِئْتِ خُبْرَ ٱلْحَالِ مِنَّا وَمِنْهُمُ سَلِي إِنْ جَهِلْتِ ٱلنَّاسَ عَنَّا وَعَنْهُمُ
فَلَيْسَ سَوَاءً عالِمٌ وَجَهُولُ

لَئِنْ ثَلَمَ ٱلأَعْداءُ عِرْضِي بِلَوْمِهِمْ فَكَمْ حَلَمُوا بِي فِي ٱلكَرَى عِنْدَ نَوْمِهِمْ
فإِنْ أَصْبَحُوا قُطْبًا لأَبْناءِ قَوْمِهِمْ فإِنَّ بَنِي الرَّيَّانِ قُطْبٌ لِقَوْمِهِمْ
تَدُورُ رَحاهُمْ حَوْلَهُمْ وتَجُولُ

الفخر والحماسة في العصر الحديث

أخذ الفخر يتقلّص في عصر النهضة، شيئًا فشيئًا، وذلك لانتشار الحضارة الحديثة، وازدياد الوعي الشخصيّ. ولئن سُمعت له أصداء من آن إلى آخر، فإنَّ هذا الفخر له مضامين متميِّزة أملاها التحضُّر، على أنّ نوعًا آخر من الفخر برز جليًّا، وهو الفخر بالأوطان، وبتاريخها، وشعبها، ومديحها، وقد عرضنا ذلك كلّه في كتابتا «أروع ما قيل في الوطنيّات».

سعيد عقل

شاعر ومفكّر لبنانيّ ثريّ العطاء. ولد في زحلة في السنة ١٩١٢ م. حاضر في الجامعات، وكتب في كبريات الصحف والمجلات، متناولًا جوانب عدّة من المعرفة. له عدّة دواوين شعريّة، منها «بنت يفتاح»، و«المجدليّة» و«رندلى». ومن أبرز آثاره النثريّة «لبنان إن حكى».

بعيدًا على شاطىء الذات في خاطر الغيهبِ

حوالي مطلٍّ الوجود، في عبقٍ طيّبِ

شددت يد الحلم، وهو على المهد، بعد، غبي

★ ★ ★

أنا ابن لبنان، ابن الوجود، وعي الخليقة بي

أنا جبت ذاتي وأفرعت أغنيَّة المطلب

وصمت المساء يلفُّ الوجود، وقبر الأبي

أنا ثروة كالكآبة عمقًا وكالغيهب

غنيٌّ... أحس الوجود غبارًا على ملعبي

★ ★ ★

يقولون: قافلة على الغرب.. لم تغلب

تشيد في الفتح، أبعد من فتحك الخلَّب

لها فسحة الأرض مرمى وناصية الكوكب

قل الفتح غمسك في الذات ورشفك نفسك رشف العتيق

من المشرب

سائليني يا شآمُ

سَـــائِلِينــــي حِيـــنَ عَطَّـــرْتُ السَّلَامْ   كَيْـفَ غَـارَ الوَرْدُ وٱعْتَـلّ الخُـزَامْ[1]

وأنـا لَـوْ رُحْـتُ أَسْتَـرْضِـي الشَّـــذا   لانْثَنَى لبنانُ عِطْـرًا يــا شَــآم[2]

ضِفَّتَـاكِ ٱرْتَـاحَتَـا فـي خَـــاطِـرِي   وَٱحْتَمى طَيْـرُكِ فـي الظَّـنِّ وَحَــامْ

نُقْلَـــةٌ فـــي الزَّهْــرِ أمْ عَنْـــدَلَـــةٌ   أنْتِ فـي الصَّحْـوِ وَتَصْفِيـقُ يَمَـامْ[3]

---

(١) الخُزام: زهر متعدّد الألوان طيّب الرائحة.

(٢) الشَّذا: قوّة الرائحة.

(٣) اليمام: الحمام البرّي.

أنـــا إنْ أوْدَعْـــتُ شِعْـــرِي سَكْـــرَةً كُنْتِ أنْتِ السَّكْبَ أو كُنْتِ المُدَامْ[1]

رُدَّ لـي مِـنْ صَبْـوَتــي يــا بَــرَدَى ذِكْـريـاتٍ زُرْنَ فـي لَيّــا قَــوَامْ[2]

لَيْلَـــةَ آرْتَــــاحَ لَنَـــا الحَـــورُ فَلَا غُصُـــنٌ إلّا شَــجٍ أو مُسْتَهَـــامْ[3]

وتَهَـــاوَى الضَّـــوْءُ إلّا نَجْمَـــةً سَهِـرَتْ تُطْفِـي أُوَامًـا بِـأُوامْ[4]

ظمِـيءَ الشَّـرْقُ فيـا شـامُ آسْكُبِـي وآمْلأي الكأسَ لَـهُ حَتَّـى الجُمَـامْ[5]

أهْلُـكِ التَّـارِيـخُ مِـنْ فَضْلَتِهِـمْ ذِكْـرُهُـمْ فـي عُـرْوَةِ الدَّهـرِ وِسَـامْ

أمـوِيُّــونَ فــإنْ ضِقْــتِ بِهِــمْ ألْحَقُـوا الدُّنْيَـا بِبُسْتَـانِ هِشَـامْ[6]

أنــا حَسْبِــي أنَّنِــي مِــنْ جَبَــلٍ هـــو بَيْـــنَ اللهِ والأرْضِ كَلَامْ

قِمَـــمٌ كــالشَّمْسِ فــي قِسْمَتِهــا تَلِـدُ النُّــورَ وتُعْطِيــهِ الأنَـــامْ[7]

★ ★ ★

---

(١) المدام: الخمر.

(٢) بردى: نهر يجري في دمشق.

(٣) شجٍ: الذي شغله الهمّ.

(٤) مستهام: متيّم، محبّ. الأوام: شدّة العطش.

(٥) الجمام: رأس الإناء بعد امتلائه.

(٦) هشام: هو هشام بن عبد الملك، أحد الخلفاء الأمويّين المشهورين.

(٧) الأنام، الناس.

حافظ إبراهيم

هو محمد حافظ بن إبراهيم فهمي المهندس الشهير بحافظ إبراهيم (١٢٨٧ هـ/ ١٨٧١ م - ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٢ م) شاعر مصر القوميّ، ومدوّن أحداثها نيِّفًا وربع قرن. نشأ يتيمًا، ونظم الشعر في أثناء الدراسة. عمل محاميًا، ثمّ ضابطًا، فمحرِّرًا في جريدة «الأهرام»، ولقِّب بشاعر النيل، وطار صيته. له ديوان شعريّ، وبعض المؤلَّفات، كما ترجم كتاب ڤكتور هيجو «البؤساء» (Les misérables) إلى العربيّة. في شعره إبداع في الصوغ امتاز به على أكثر أقرانه.

لمصر أم لربوع الشّام

لِمِصْرَ أَمْ لِرُبُوعِ الشامِ تَنْتَسِبُ	هنا العُلى وهُنَاكَ المجْدُ والحَسَبُ
خِدْرانِ للضّادِ لم تُهْتَكْ سُتُورُهُما	ولا تَحَوَّلَ عن مَغْنَاهُمَا الأَدَبُ[1]
أُمُّ اللُّغَاتِ غداةَ الفَخْرِ أُمُّهُما	وإنْ سَأَلْتَ عَنِ الآباءِ فالعَرَبُ
أَيَرْغَبانِ عَنِ الحُسْنَى وَبَيْنَهُما	تِلْكَ القرابَةُ لم يُقْطَعْ لها سَبَبُ

(١) خدران للضاد: موطنان للّغة العربيّة.

إذا أَلَمَّتْ بِوَادي النيلِ نَازِلَةٌ باتَتْ لها راسِيَاتُ الشامِ تَضْطَرِبُ

وإنْ دَعَا في ثَرَى الأهرامِ ذُو أَلَمٍ أجَابَهُ في ذُرَى لبنانَ مُنْتَحِبُ

لَوْ أخْلَصَ النِّيلُ والأرْدُنُّ وُدَّهُما تَصَافَحَتْ مِنهما الأمْوَاهُ والعُشُبُ

نَسِيمَ لبنانَ كم جادَتْكَ عَاطِرَةٌ مِنَ الرِّيَاضِ وكم حَيَّاكَ مُنْسَكِبُ

في الشَّرقِ والغَرْبِ أنْفاسٌ مُسَعَّرَةٌ تَهْفُو إليكَ وأكبادٌ لها لَهَبُ

لَوْلا طِلَابُ العُلَى لم يَبْتَغُوا بَدَلًا مِنْ طيبِ رَيَّاكَ لكنَّ العلى تَعبُ

بأرض كولمب أبْطالٌ غَطَارِفَةٌ أُسْدٌ جياعٌ إذا ما وُوثبوا وَثَبُوا[1]

لم يَحْمِهِمْ عَلَمٌ فيها ولا عَدَدٌ سِوَى مَضَاءٍ تَحَامَى وِرْدَهُ النُّوَبُ

أُسْطُولُهُمْ أَمَلٌ في البحرِ مُرْتَحِلٌ وَجَيْشُهُمْ عَمَلٌ في البرِّ مُغْتَرِبُ

لم تَبْدُ بَارِقَةٌ في أفْقِ مُنْتَجَعٍ إلّا وكانَ لها بالشام مُرْتَقِبُ

ما عابَهُمْ أنَّهُمْ في الأرض قد نُثِروا فالشُّهْبُ مَنْثُورَةٌ مُذْ كانتِ الشُّهُبُ

رَادُوا المناهِلَ في الدُّنْيا وَلَوْ وَجَدوا إلَى المجَرَّةِ رَكْبًا صَاعِدًا رَكِبُوا

أو قيلَ في الشَّمْسِ للرَّاجين مُنْتَجَعٌ مَدُّوا لها سَبَبًا في الجَوِّ وانْتَدَبوا

سَعَوا إلى الكَسْبِ مَحْمُودًا وما فَتِئَتْ أُمُّ اللُّغَاتِ بذاكَ السَّعْيِ تَكْتَسِبُ

فأَيْنَ كانَ الشآمِيُّونَ كانَ لها عَيْشٌ جَدِيدٌ وفَضْلٌ لَيْسَ يَحْتَجِبُ

هٰذي يَدِي عن بني مِصْرٍ تُصَافِحُكُمْ فَصَافِحُوها، تصافِحْ نَفْسَها العَرَبُ

★ ★ ★

(١) أرض كولمب: أي أميركا.

ناصيف يمين

ناصيف يزبك يمّين. ولد في عين داره سنة ١٩٣٩ . درس في عين ورقة، ثمّ عند الآباء اليسوعيين. مجاز في الأدب ـ مارس الصحافة لفترة قصيرة. له أقاصيص وترجمات ـ وكتب متعدّدة في اللغة.

وفيما يلي بعض من قصيدة قيلت عندما حاولت إسرائيل مهاجمة الجنوب، فتصدّى لها الجيش اللبنانيّ:

كان الفخارُ، وكان المجدُ مذ كانَ ... لبنانُ، لا مجدَ يَحكي مجدَ لبنانا

وكانَ كلُّ الجمالِ البكرِ مُؤتلقًا ... يلفُّ في سحرِهِ جُردًا وشُطآنا

وينحني الضّوءُ من فوق الذُّرى وَلِهًا ... ويغمرُ السّهلَ أشواقًا وتحنانا

والطّيرُ تصدحُ فوقَ الغصن، في شغَفٍ ... وتغزلُ الشّعرَ أنغامًا وأوزانا

أمّا النّسيمُ فما غُصنٌ يلوحُ جَوًى ... إلّا وأسمعَهُ في العشقِ ألحانا

والرّاعياتُ على أنغامها سَكِرَتْ ... تلك الرُّبى، فَسَخَتْ رَوحًا وريحانا

والزّهرُ ضاعَ لذاكَ الحُسنِ، وانتشَرْت ... أطيابُهُ تَحْتَوي سَفحًا ووديانا

وصفحةُ الأزرقِ الممتَدّ هادئةٌ ... تجلُو بدورَ السّما أصفَى مرايانا

من شطّهِ «زفسُ» قد ذَاقَ الهَوى عَسَلًا ... واستعبَدَتْ قلبَهُ أحلَى صبايانا

كنّا ونبقى... وتبقى أرزتي عَلَمًا — مُتنَا له وافتَدَيناهُ فأحيَانا
كلُّ الفَخارِ وكلُّ المجدِ في وطني — جادَ الإلهُ فأغناهُ وأغنانا
فالعبقريّاتُ في هذي الذُّرَى دَرَجتْ — و«العنتريّاتُ» شبَّتْ حولَ مَغْنانا
والمكرماتُ ورثناها على سَعَةٍ — وقد بنينا بها دنيا وأوطانا
فكم غزونا دُنًى نبغي هدايتَها — وأُبنا والفكرُ بَعْضٌ مِنْ سَبَايانا
حتّى النّجومُ قطفناها فما امتَنَعَتْ — عنّا، ولا الشّمسُ غابَتْ فوقَ دنيانا
والحبُّ لم يلتهبْ قلبٌ بجذوتِهِ — لوما تطهّرَ من أنسامِ ريّانا
والحقُّ دِينٌ كمَا الرّحمنُ نعبدُهُ — والجودُ طبعٌ أصيلٌ في سَجَايانا
ضيوفُنا كم سَخَونا بالقلوب لهم — فكان مسكنُهم، دومًا، حنايانا
عَابُوا علينا سخاءَ الكفِّ نَبسِطُها — كم عابَنا النّاسُ نَسخُو في عطايانا!
وكم خَطِئنا، ولن نَرتدَّ عن خطإٍ — محبّةُ الضّيفِ بعضٌ من خطايانا!..
كم عيّرونا بأنّ الظّلمَ رائدُنا — وأنّ في حكمنا كفرًا وطغيانا
وأنّنا قد أتينا الخيرَ في يُسُرٍ — وغيرُنا نالَ إذلالًا وحرمانا
وأنّنا لم نفِ حقًّا لأخوتنا — وقد كسبنا الغنى زورًا وبُهتانا
إن تجهلوا فضلَنا أو تجحدوه فقد — كنّا الأُلى نفتدي أرضًا وإخوانا
أو تُنكروا نيلَنا إستقلالَنا قِدَمًا — إنّا سَنَأْخُذُهُ استقلالَنا الآنا!..
وهبَّ لبنانُ من سهلٍ الى جبلٍ — الى الشّواطي ليحمي مجدَ لبنانا
يردُّ للنّحر كيدَ الكافرينَ بهِ — ويبدلُ الغدرَ إخلاصًا وإيمانا
يا مستبيحًا حمى الأجدادِ عن ضَعَةٍ — وسَّعتَ قبرًا وما وسَّعتَ أوطانا

أَمـا رأيـتَ بـأنّ المجـدَ صـاحبُنـا — يمشـي إلينـا زُرافـاتٍ ووحـدانـا

أمـا رأيـتَ لـواءَ النّصـرِ تنـزعُـهُ — بالرّغم من أنفكـم صُغـرى سـرايـانـا

تكـرٌّ فـي روحِهـا روحُ الفـداء وفـي — صـدورهـا يتلظّـى العـزمُ نيـرانـا

سفينـةٌ فـي بحـارِ التّيـهِ شـاردةٌ — كانت، ولاقَتْ، بُعيـدَ التّيـهِ، رُبّـانـا

يقـودُهـا، وبحـارُ الظّلـمِ مـزبـدةٌ — والموجُ يقـذف حيتـانًـا وقـرصـانـا

حتّـى غـدا العـزُّ دستـورًا لـرفعتنـا — وحـبٌّ لبنـانَ إنجيلًا وقـرآنـا

هـذي مـآثـرنـا تـروي حكـايَتنـا — هـذي منـابـرُنـا تُلقـي وصـايـانـا

أَنّـا نشـرنـا على الدّنيـا ثقـافتَنـا — أنّـا جعلنـا مـن الإنسـان إنسـانـا

★ ★ ★

في الخطب الحماسيّة

خالد بن الوليد

هو خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشيّ (٠٠٠ - ٢١ هـ/ ٠٠٠ - ٦٤٢ م). من أشراف قريش في الجاهليّة، أسلم قبل فتح مكّة هو وعمرو بن العاص. قاتل مسيلمة ومن ارتدّ من أعراب نجد في أيام أبي بكر، وفتح الحيرة وقسمًا كبيرًا من العراق. ولما ولي عمرعزله عن قيادة الجيوش بالشام وعين مكانه أبا عبيدة بن الجراح. ورغم ذلك ظلّ يقاتل بين يدي أبي عبيدة إلى أن تمّ لهما الفتح، فرحَلَ إلى المدينة، فدعاه عمر ليوليه فأبى. مات بحمص، وقيل بالمدينة. كان خطيبًا فصيحًا، وفارسًا شجاعًا، قال فيه أبو بكر: «عجزت النساء أن يَلِدْنَ مثل خالد».

وفيما يلي خطبته التي قالها محرّضًا جيشه على القتال في أجنادين:

★★★

يَا مَعَاشِرَ ٱلنَّاسِ أنْصُرُوا ٱللهَ يَنْصُرْكُمْ. وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَٱحْتَسِبُوا أَنْفُسَكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَٱصْبِرُوا عَلَى قِتَالِ أَعْدَائِكُمْ. وَقَاتِلُوا عَنْ حريمكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ وَدِينِكُمْ. وَلَيْس لَكُمْ مَلْجَأٌ تَلْجَأُونَ إِلَيْهِ وَمَكْمَنٌ تَكْمِنُونَ فِيهِ. فَٱقْرِنُوا

ٱلْمَنَاكِبَ وَقَدِّمُوا ٱلْمَضَارِبَ. وَلَا تَحْمِلُوا حَتَّى آمُرَكُمْ بِٱلْحَمْلَةِ. وَلْتَكُن ٱلسِّهَامُ مُجْتَمِعَةً إِذَا خَرَجَتْ مِنْ أَكْبَادِ ٱلْقِسِيِّ كَأَنَّهَا تَخْرُجُ مِنْ كَبِدِ قَوْسٍ وَاحِدٍ. فَإِنَّهُ إِذَا تَلَاحَقَتِ ٱلسِّهَامُ رَشْقًا كَٱلْجَرَادِ لَمْ يَخْلُ أَنْ يَكُونَ فِيهَا سَهْمٌ صَائِبٌ. وَٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَٱتَّقُوا ٱللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَا تَلْقَوْنَ عَدُوًّا مِثْلَ هٰذِهِ ٱلْفِئَةِ حُمَاتِهِمْ وَأَبْطَالِهِمْ وَمُلُوكِهِمْ.

★ ★ ★

علي بن أبي طالب

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطّلب الهاشميّ القرشيّ (٢٣ ق هـ - ٤٠ هـ/ ٦٠٠ - ٦٦١ م)، أمير المؤمنين، ورابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشّرين بالجنّة. من الأبطال الشجعان والخطباء والعلماء بالقضاء، وأوّل الرجال إسلامًا. ولد بمكّة، وكان ربيب الرسول (ﷺ). ولي الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفّان، ولكن معاوية بن أبي سفيان لم يبايعه، بل اتّهمه بقتل عثمان، وراح يؤلّب المسلمين ضدّه، فحصلت وقعة الجمل بينه وبين عائشة، ثم وقعة صفّين بينه وبين معاوية التي انتهت بتحكيم أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص اللذين اتّفقا على خلع عليّ ومعاوية، فأعلن أبو موسى ذلك، وخالفه عمرو، فأقرّ معاوية، وافترق المسلمون عند ذلك ثلاثة أقسام: منهم من بايع معاوية، ومنهم من حافظ على بيعته لعليّ ومنهم من نقم على عليّ لرضاه بالتحكيم، فقتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي غيلة في الكوفة.

★ ★ ★

لمَّا أغار سُفيان بن عوفٍ الأسديُّ على الأنبار في خلافة عليٍّ وعليها حسَّان البكريُّ فقتلهُ وأزال تلك الخيل عن مسالحها. فخرج عليّ حتى جلس على باب السدَّة فحمدالله وأثنى عليهِ ثمَّ قال:

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ ٱلْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْجَنَّةِ. فَمَنْ تَرَكَهُ أَلْبَسَهُ ٱللهُ ثَوْبَ ٱلذُّلِّ

وَأَشْمَلَهُ ٱلْبَلَاءَ وَأَلْزَمَهُ ٱلصَّغَارَ وَسَامَهُ ٱلْخَسْفَ. وَمَنَعَهُ ٱلنَّصْفَ. أَلَا وَإِنِّي دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ لَيْلًا وَنَهَارًا وَسِرًّا وَإِعْلَانًا. وَقُلْتُ لَكُمْ: ٱغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ فَوَاللهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا. فَتَوَاكَلْتُمْ وَتَخَاذَلْتُمْ وَثَقُلَ عَلَيْكُمْ قَوْلِي. فَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ ٱلْغَارَاتُ. هٰذَا أَخُو غَامِدٍ قَدْ بَلَغَتْ خَيْلُهُ ٱلْأَنْبَارَ وَقَتَلَ حَسَّانَ ٱلْبَكْرِيَّ. وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا وَقَتَلَ مِنْكُمْ رِجَالًا صَالِحِينَ ثُمَّ ٱنْصَرَفُوا وَافِرِينَ مَا كُلِمَ رَجُلٌ مِنْهُمْ. فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مُسْلِمًا مَاتَ مِنْ بَعْدِ هٰذَا أَسَفًا مَا كَانَ عِنْدِي مَلُومًا بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيرًا. فَوَا عَجَبًا مِنْ جِدِّ هٰؤُلَاءِ فِي بَاطِلِهِمْ وَفَشَلِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ. فَقُبْحًا لَكُمْ وَتَرَحًا حِينَ صِرْتُمْ غَرَضًا يُرْمَى يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغِيرُونَ. وَتُغْزَوْنَ وَلَا تَغْزُونَ. وَيُعْصَى ٱللهُ وَتَرْضَوْنَ. فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِٱلْمَسِيرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ ٱلْحَرِّ قُلْتُمْ: حَمَارَّةُ ٱلْقَيْظِ أَمْهِلْنَا حَتَّى يُسَبَّخَ عَنَّا ٱلْحَرُّ. وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِٱلْمَسِيرِ إِلَيْهِمْ ضُحًى فِي ٱلشِّتَاءِ قُلْتُمْ أَمْهِلْنَا حَتَّى يَنْسَلِخَ عَنَّا هٰذَا ٱلْقُرُّ. فَأَنْتُمْ وَاللهِ مِنَ ٱلسَّيْفِ أَفَرُّ، يَا أَشْبَاهَ ٱلرِّجَالِ وَلَا رِجَالٌ، وَيَا أَحْلَامَ أَطْفَالٍ وَعُقُولَ رَبَّاتِ ٱلْحِجَالِ، وَدِدتُ أَنَّ ٱللهَ أَخْرَجَنِي مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ وَقَبَضَنِي إِلَى رَحْمَتِهِ مِنْ بَيْنِكُمْ وَأَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً. واللهِ حِرْتُ وَهْنًا وَوَرَّيْتُمْ وَاللهِ صَدْرِي غَيْظًا. وَجَرَّعْتُمُونِي ٱلْمَوْتَ أَنْفَاسًا. وَأَفْسَدتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِٱلْعِصْيَانِ وَٱلْخِذْلَانِ حَتَّى قَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّ ٱبْنَ أَبِي طَالِبٍ شُجَاعٌ وَلٰكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِٱلْحَرْبِ. للهِ أَبُوهُمْ وَهَلْ مِنْهُمْ أَحَدٌ أَشَدُّ لَهَا مِرَاسًا وَأَطْوَلُ تَجْرِبَةً مِنِّي؟ لَقَدْ مَارَسْتُهَا وَأَنَا ٱبْنُ عِشْرِينَ، فَهَا أَنَاذَا قَدْ نَيَّفْتُ عَلَى ٱلسِّتِّينَ، وَلٰكِنْ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ.

★ ★ ★

خطبة أمراء المسلمين لجيشهم قبل وقعة اليرموك

وَلَمَّا حَانَ ٱلْقِتَالُ خَرَجَ مُعَاذُ مُحَرِّضًا ٱلنَّاسَ يَقُولُ: يا أَهْلَ ٱلدِّينِ وَيَا أَنْصَارَ ٱلْهُدَى وَٱلْحَقِّ، ٱعْلَمُوا أَنَّ رَحْمَةَ ٱللهِ تَعَالَى لَا تُنَالُ إِلَّا بِٱلْعَمَلِ وَٱلنِّيَّةِ وَلَا تُدْرَكُ بِٱلْمَعْصِيَةِ وَٱلتَّمَنِّي وَبِغَيْرِ عَمَلٍ مَرْضِيٍّ. وَلَا يُؤْتِي ٱللهُ مَغْفِرَتَهُ ٱلْوَاسِعَةَ إِلَّا ٱلصَّالِحِينَ وَٱلصَّادِقِينَ. فَإِنَّهُ قَدْ قَسَمَ أَنْ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ. وَٱسْتَحْيُوا رَحِمَكُمُ ٱللهُ مِنَ ٱللهِ تَعَالَى أَنْ يَرَاكُمُ ٱللهُ مُنْهَزِمِينَ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَأَنْتُمْ فِي قَبْضَتِهِ وَلَيْسَ لَكُمْ مَلْجَأٌ مِنْ دُونِهِ.

وَخَرَجَ مِنْ بَعْدِهِ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فَطَافَ بَيْنَ ٱلصُّفُوفِ وَهُوَ شَاكٌّ فِي سِلَاحِهِ رَاكِبٌ فَرَسَهُ وَهُوَ يَقُولُ: مَعَاشِرَ ٱلنَّاسِ أَنْتُمُ ٱلْعَرَبُ ٱلْكِرَامُ ٱلسَّادَةُ ٱلْعِظَامُ وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي دِيَارِ ٱلْأَعْلَاجِ مُنْقَطِعِينَ عَنِ ٱلْأَهْلِ وَٱلْوَطَنِ. وَٱللهِ لَا يُنَجِّيكُمْ مِنْهُمُ ٱلْيَوْمَ إِلَّا ٱلطَّعْنُ وَٱلضَّرْبُ تَبْلُغُونَ بِذٰلِكَ أَرَبَكُمْ وَتَنَالُونَ ٱلْفَوْزَ مِنْ رَبِّكُمْ. وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱلصَّبْرَ فِي مَوَاطِنِ ٱلْبَأْسِ مِمَّا يُفَرِّجُ ٱللهُ بِهِ ٱلْهَمَّ وَيُنَجِّي بِهِ مِنَ ٱلْغَمِّ. فَٱصْدُقُوهُمُ ٱلْقِتَالَ فَإِنَّ ٱلنَّصْرَ يَنْزِلُ مَعَ ٱلصَّبْرِ. فَإِنْ صَبَرْتُمْ مَلَكْتُمْ أَمْصَارَهُمْ وَبِلَادَهُمْ وَٱسْتَعْبَدتُمْ نِسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ. وَإِنْ وَلَّيْتُمْ فَلَيْسَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلَّا مَفَاوِزُ لَا تُقْطَعُ إِلَّا بِٱلزَّادِ ٱلْكَثِيرِ وَٱلْمَاءِ ٱلْغَزِيرِ وَهٰؤُلَاءِ يَرْجِعُونَ إِلَى دَارٍ وَقُصُورٍ. فَٱمْتَنِعُوا بِسُيُوفِكُمْ وَجَاهِدُوا فِي ٱللهِ حَقَّ جِهَادِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ.

★ ★ ★

طارق بن زياد

هو طارق بن زياد الليثي بالولاء (نحو ٥٠ هـ/ نحو ٦٧٠ م - ١٠٢ هـ/ ٧٢٠ م) فاتح الأندلس. بربريّ الأصل، أسلم على يد موسى بن نصير، وكان شجاعًا. ولما تمّ لموسى فتح طنجة، ولّى عليها طارقًا. ثم قاد جيشًا مؤلفًا من ١٢٠٠٠ مقاتل معظمهم من البربر، نزل بهم البحر واستولى على جبل طارق، وفتح حصن قرطاجنّة، وتغلغل في أرض الأندلس بعد أن أخرق سفنه التي عبر عليها جيشه، حارب الملك روزيق (رودريك) وقتله، وافتتح إشبيلية، ثم احتلّ طليطلة. وكان موسى قد حذّره من التوغّل في الفتوح، ولما لم يطع الأوامر عزله من القيادة، ثم أعاده الوليد بن عبد الملك، وأصلح بينه وبين موسى. وعاد طارق إلى غزواته، وافتتح معظم مدن الأندلس. وفيما يلي الخطبة التي ألقاها بعد أن خرق السفن:

أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ. ٱلْبَحْرُ مِنْ وَرَائِكُمْ وَٱلْعَدُوُّ أَمَامَكُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ وَٱللهِ إِلَّا ٱلصِّدْقُ وَٱلصَّبْرُ. وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ فِي هٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ أَضْيَعُ مِنَ ٱلْأَيْتَامِ فِي مَأْدُبَةِ ٱللِّئَامِ. وَقَدِ ٱسْتَقْبَلَكُمْ عَدُوُّكُم بِجَيْشِهِ، وَأَسْلِحَتُهُ وَأَقْوَاتُهُ مَوْفُورَةٌ وَأَنْتُمْ لَا وَزَرَ لَكُمْ إِلَّا سُيُوفُكُمْ وَلَا أَقْوَاتَ إِلَّا مَا تَسْتَخْلِصُونَهُ مِنْ أَيْدِي عَدُوِّكُمْ. وَإِنِ

ٱمْتَدَّتْ بِكُمُ ٱلْأَيَّامُ عَلَى ٱفْتِقَارِكُمْ وَلَمْ تُنْجِزُوا لَكُمْ أَمْرًا ذَهَبَ رِيحُكُمْ وَتَعَوَّضَتِ ٱلْقُلُوبُ مِنْ رعْبِهَا عَنْكُمُ ٱلْجَرْأَةَ عَلَيْكُمْ. فَٱدْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ خِذْلَانَ هٰذِهِ ٱلْعَاقِبَةِ مِنْ أَمْرِكُمْ بِمُنَاجَزَةِ هٰذا ٱلطَّاغِيَةِ. فَقَدْ أَلْقَت بِهِ إِلَيْكُمْ مِدِينَتُـهُ ٱلْحَصِينَـةُ. وَإِنَّ ٱنْتِهَازَ ٱلْفُرْصَةِ فِيهِ لَمُمْكِنٌ إِنْ سَمَحْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ بِٱلْمَوْتِ. وَإِنِّي لَم أُحَذِّرْكُمْ أَمْرًا أَنَا عَنْهُ بِنَجْوَةٍ، وَلَا حَمَلْتُكُمْ عَلَى خُطَّةٍ أَرْخَصُ مَتَاعٍ فِيهَا ٱلنُّفُوسُ. أَبْدَأُ بِنَفْسِي. وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنْ صَبَرْتُمْ عَلَى ٱلْأَشَقِّ قَلِيلًا ٱسْتَمْتَعْتُمْ بِٱلْأَرْفَهِ ٱلْأَلَذِّ طَوِيلًا. فَلَا تَرْغَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ نَفْسِي فَمَا حَظُّكُمْ فِيهِ بِأَوْفَرَ مِنْ حَظِّي. وَقَدْ بَلَغَكُمْ مَا أَنْشَأَتْ هٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةُ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْعَمِيمَةِ. وَقَدِ ٱنْتَخَبَكُمُ ٱلْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنَ ٱلْأَبْطَالِ عُرْبَانًا. وَرَضِيَكُمْ لِمُلُوكِ هٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ أَصْهَارًا وَأَخْتَانًا، ثِقَةً مِنْهُ بِٱرْتِيَاحِكُمْ لِلطِّعَانِ، وَٱسْتِمَاحِكُمْ بِمُجَالَدَةِ ٱلْأَبْطَالِ وَٱلْفُرْسَانِ. لِيَكُونَ حَظُّهُ مِنْكُمْ ثَوَابَ ٱللهِ عَلَى إِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ وَإِظْهَارِ دِينِهِ بِهٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ. وَلِيَكُونَ مَغْنَمُهَا خَالِصًا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ وَمِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ سِوَاكُمْ. وَٱللهُ تَعَالَى وَلِيٌّ إِنْجَادِكُمْ عَلَى مَا يَكُونُ لَكُمْ ذِكْرًا فِي ٱلدَّارَيْنِ. وَٱعْلَمُوا أَنِّي أَوَّلُ مُجِيبٍ إِلَى مَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ وَأَنِّي عِنْدَ مُلْتَقَى ٱلْجَمْعَيْنِ حَامِلٌ بِنَفْسِي عَلَى طَاغِيَةِ ٱلْقَوْمِ رذريق فَقَاتِلُهُ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى. فَٱحْمِلُوا مَعِي فَإِنْ هَلَكْتُ بَعْدَهُ فَقَدْ كُفِيتُمْ أَمْرَهُ وَلَمْ يُعْوِزْكُمْ بَطَلٌ عَاقِلٌ تُسْنِدُونَ أُمُورَكُمْ إِلَيْهِ. وَإِنْ هَلَكْتُ قَبْلَ وُصُولِي إِلَيْهِ فَٱخْلُفُونِي فِي عَزِيمَتِي هٰذِهِ، وَٱحْمِلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَلَيْهِ وَٱكْتَفُوا ٱلْهَمَّ مِنْ فَتْحِ هٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ بِقَتْلِهِ.

★ ★ ★

سلطان الأطرش

هو زعيم الدروز في جبل العرب، و« قائد جيوش الثورة الوطنيَّة السوريّة العام » إبّان الاحتلال الفرنسيّ لسوريا، سلطان باشا الأطرش. ولد في القريَّة، وهي إحدى قرى جبل العرب في جنوب سورية، وكان يؤلِّف مع أسرته وأقاربه عشيرة كبيرة كان لها دور كبير في تاريخ سوريّا. ثار على الاحتلال الفرنسيّ لسوريّة، وأصدر سنة ١٩٢٥ م منشورًا ثوريًّا أعلن فيه بدء الثورة الشاملة في سورية، ويُعتَبر هذا المنشور وثيقة تاريخيَّة، وقوميّة، وأدبيّة ذات شأن. وفيما يلي نصّه:

باسم الوطن السوريّ المقدّس، وباسم استقلاله المبارك، أُحيِّيكم وأحيِّي فيكم العروبة الصادقة والأَنَفَة القوميَّة، وأستصرخ منكم أمّةً عربية مشت على مناكب الدهر محمية الذِمار[1]، ما حملت عارًا ولا كان بحماها شَنار[2]. وأستنصركم لحَوْمة الجهاد الوطني يا خيرَ مَن حمى الوطن، وكنتم ذادةً أبطالًا، ونفرتم إلى مواطن الشرف القومي خفافًا وثقالًا[3]. وأناديكم من معاقل الجبل المنيع. وهو داركم وسلاحكم، وحِرزكم وملاذكم، أن هبّوا إلى المنافحة عن أوطانكم أوطانِ آبائكم وأجدادكم، وحَطِّموا أغلال الاستعمار في دياركم، فقد هبَّت رياحُكم فاغتنموها،

(١) محمية الذمار: منيعة لا يستطيع أحد احتلالها.

(٢) الشنار: أقبح العار.

(٣) الخفيف في الحرب السريع الحركة، والثقيل: البطيء لثقل سلاحه وعتاده.

ودَرَّت ضروعُ أيامكم[1] فاحتلبوها.

يا أحفاد العرب الأمجاد، هذا يومُ ينفعُ المجاهدين جهادُهم، والعاملين في سبيل الحرية والاستقلال عملهم. هذا يومَ انتباه الأمم والشعوب. فلننهضْ من رقادنا. ولنبدِّد ظلام التحكّم الأجنبيّ عن سماء بلادنا. لقد مضى علينا عشرات السنين، ونحن نجاهد في سبيل الحرية والاستقلال، فلنستأنف جهادَنا المشروعَ بالسيف بعد أن أُسكِت القلم، ولا يضيع حق وراءه مطالب.

أيّها اِلسوريّون، لقد أثبتت التجارب أنَّ الحق يؤخذ ولا يُعطى، فلنأخذ حقَّنا بحد السيوف ولنطلب الموتَ توهب لنا الحياة.

أيّها العرب السوريّون. تذكَّروا أجدادَكم، وتاريخَكم، وشهداءكم، وشرفكم القوميّ. تذكَّروا أنَّ يد الله مع الجماعة، وأنَّ إرادة الشعب من إرداة الله، وأنّ الأمم المتَّحدة الناهضةَ لن تنالّها يد البغي.

لقد نهب المستعمرون أموالنا، واستأْثروا بمنافع بلادنا، وأقاموا الحواجز الضارّة بين وطننا الواحد، وقسَّمونا إلى شعوب، وطوائف، ودويلات، وحالوا بيننا وبين حرية الدين والفكر والضمير، وحرية التجارة، والسفر حتى في بلادنا وأقاليمنا.

إلى السلاح أيّها الوطنيّون، إلى السلاح تحقيقًا لأمانيِّ البلادْ المقدَّسة، إلى السلاح تأييدًا لسيادة الشعب وحرّية الأمّة، إلى السلاح بعد أنْ سلب الأجنبيّ حقوقكم، واستعبد بلادكم، ونقض عهودكم، ولم يحافظ على شرف الوعود الرسميّة، وتناسى الأمانيَّ القوميّة. نحن نبرأ إلى الله من مسؤوليَّة سفك الدماء، ونعتبر المستعمرين مسؤولين مباشرةً عن الفتنة. يا ويح الظلم، لقد وصلنا من الظلم إلى أن نُهان في عقر دارنا، فنطلبَ استبدال حاكم أجنبيّ محروم من المزايا الإنسانية[2] بآخرَ من بني

(١) درت ضروع أيامكم: جاءت باللبن والخير، أي أقبل سعدكم والفرصة مواتية للتحرر.

(٢) هو الكابتن (كاربيه) الذي طالب سلطان الجبل بسحبه وتعيين حاكم آخر بدلًا منه، بسبب تماديه في غيه وغطرسته وجوره. وقد لقب نفسه امبراطور الجبل.

جلدته الغاصبين فلا نجاب إلى طلبنا، بل يُطرَد وفدنا كما تطرد النعاج.

إلى السلاح أيها الوطنيّون، ولنغسل إهانةَ الأمّة بدم النجدة والبطولة.

إنّ حربنا اليوم هي حرب مقدَّسة، وثورتنا الدمويَّة هذه هي ثورة القائم لتحرير البلاد من المغتصبين المستعمرين، هي ثورة سورية بعيدةُ المدى شريفة الغاية، نصابها[1] النفوس، والأرواح، والسلاح، والعَزَمات الصادقات خالصةً لوجه الاستقلال العربيّ. ففي سبيل استقلال بلادنا السوريَّة حياةَ الأعزّة نحيا، وفي هذا السبيل موتَ الكرام نموت.

فيا أيها العرب الأماجد، أهلَ النخوة والنجدة، وحِّدوا مساعيَكم، وتعاقدوا بقلوبكم، وتقلَّدوا سلاحكم، وانشروا ألويتكم، واركبوا خيولكم، وصابحوا العدو الجائس خلال دياركم ببارود الثورة، وخذوا عليه الطرق، وأرصدوا له في المكامن، وقطِّعوا الأسلاك، وانسفوا الجسور، واهبطوا على مخافره في كل مكان، واقتلوه حيث ثقِفتموه[2]، واغتنموا سلاحه وعَتاده، وكونوا عليه جميعًا يدًا واحدة، واصبروا في القتال والجلاد، إنَّ الله مع الصابرين.

فإلى اليوم الذي لاح صبحه، وفيه تتحرر البلاد السوريّة العربيّة، يا أباة الضيم وعُياف[3] الذلّ. إلى اليوم الذي تتوحَّد فيه البلاد وتستردّ استقلالَها المسلوب.

إلى السلاح، ولنكتبْ مطالبَنا المشروعة هذه بدمائنا الطاهرة كما كتبها أجدادنا من قبلنا.

إلى السلاح، والله معنا، والإنسانيّة معنا، ولتحيَ سورية حرةً مستقلة.

قائد جيوش الثورة الوطنية السورية العام

سلطان الأطرش

---

(١) نصاب الشيء: أصله ومرجعه وعماده.

(٢) ثقفتموه: وجدتموه.

(٣) عياف: أباة.

متفرِّقات في الفخر

قال المهلهل:

إنَّا بَنُو تَغْلِبٍ شُمٌّ مَعَاطِسُنَا بِيضُ ٱلْوُجُوهِ إذَا مَا أفْزَعَ ٱلْبَلَدُ

قَوْمٌ إذَا عَاهَدُوا وَفَّوْا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا وَإِنْ شَهِدُوا يَوْمَ ٱلْوَغَى آجْتَهَدُوا

وَإِنْ دَعَوْتَهُمُ يَوْمًا لِمَكْرُمَةٍ جَاؤوا سِرَاعًا وَإِنْ قَامَ ٱلْخَنَى قَعَدُوا

لاَ يَرْقُدُونَ عَلَى وِتْرٍ يَكُونُ لَهُمْ وَإِنْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ وِتْرُ ٱلْعِدَى رَقَدُوا

★ ★ ★

قَالَ آمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ:

فَلَوْ أنَّ مَا أسْعَى لأدْنَى مَعِيشَةٍ كَفَانِي وَلَمْ أطْلُبْ قَلِيلًا مِنَ ٱلْمَالِ

وَلٰكِنَّمَا أسْعَى لِمَجْدٍ مُؤَثَّلٍ وَقَدْ يُدْرِكُ ٱلْمَجْدَ ٱلْمؤَثَّلَ أمْثَالِي

★ ★ ★

لأبِي ٱلطَّمْحَانِ ٱلقَيْنِيِّ:

وَإنّي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ هُمُ هُمُ إذَا مَاتَ مِنْهُمْ سَيِّدٌ قَامَ صَاحِبُهْ

نُجُومُ سَمَاءٍ كُلَّمَا غَابَ كَوْكَبٌ بَدَا كَوْكَبٌ تَأْوِي إلَيْهِ كَوَاكِبُهْ

★ ★ ★

وقال أبو مسلم الخراساني:

أَدْرَكْتُ بِٱلْحَزْمِ وَٱلْكِتْمانِ ما عَجَزَتْ ... عَنْهُ مُلُوكُ بَنِي مَرْوَانَ إِذْ حَشَدُوا
ما زِلْتُ أَسْعَى بِجُهْدِي فِي دَمارِهِمِ ... وَٱلْقَوْمُ فِي غَفْلَةٍ بِٱلشَّامِ قد رَقَدُوا
حَتَّى ضَرَبْتُهُمُ بِٱلسَّيْفِ فانْتَبَهُوا ... من نَوْمَةٍ لَمْ يَنَمْها قَبْلَهُمْ أَحَدُ
ومَنْ رَعَى غَنَمًا فِي أَرْضِ مَسْبَعَةٍ ... وَنامَ عَنْها تَوَلَّى رَعْيَها ٱلأَسَدُ

★ ★ ★

ولعلي بن اسماعيل بن القاسم:

أَنَا مِنْ قَوْمٍ إِذَا مَا غَضِبُوا ... أَطْعَمُوا ٱلأَرمَاحَ حَبَّاتِ ٱلْقُلُوبِ
وَهُمُ فِي ٱلسِّلْمِ كَالْمَاءِ صَفَا ... لِصَدِيقٍ وَحَمِيمٍ وَقَرِيبِ
فَبِهِمْ فَخْرِي وَفِيهِمْ قُدْوَتِي ... وَبِهِمْ نِلْتُ مِنَ ٱلْعَلْيَا نَصِيبِي
وَبِفَضْلِ ٱللهِ رَبِّي لَمْ أَزَلْ ... فِي مَرَاقِي ٱلعِزِّ وَٱلْعَيْشِ ٱلرَّطِيبِ
لَيْسَ لِي إِلاَّ ٱلْمَعَالِي أَرَبٌ ... فَعَلَى كَاهِلِهَا صَارَ رُكُوبِي
إِنْ دَعَا دَاعٍ إِلَى غَيْرِ ٱلْعُلَى ... لاَ تَرَانِي لِدُعَاهُ مِن مُجِيبِ

★ ★ ★

ولأبي الفتح البستي:

قَالُوا رَضِيتَ بِدُونِ حَقِّكَ وَٱلْغِنَى ... يَسْمُو بِصَاحِبِهِ إِلَى ٱلْعَلْيَاءِ
فَأَجَبْتُهُمْ وَٱلْقَولُ مِنِّي فَيْصَلٌ ... يَحْكِي غِرارَ ٱلسَّيْفِ وَقْتَ مَضَاءِ
حَسْبِي ٱلتَّكَثُّرُ بِٱلْفَضَائِلِ إِنَّهَا ... ذُخْرِي لِيَومَيْ شِدَّةٍ وَرَخَاءِ
فَإِذَا تَمَادَت مَعْشَرٌ فِي مَفْخَرٍ ... كُنْتُ ٱلأَحَقَّ بِسُؤْدُدٍ وَعَلاَءِ

★ ★ ★

ولأبي الحسن قابوس:

قُلْ لِلَّذِي بِصُرُوفِ ٱلدَّهْرِ عَيَّرَنَا هَلْ حَارَبَ ٱلدَّهْرُ إلاَّ مَن لَهُ خَطَرُ
أَمَا تَرَى ٱلْبَحْرَ يَعْلُو فَوقَهُ جِيَفٌ وَتَسْتَقِرُّ بِأَقْصَى قَعْرِهِ ٱلدُّرَرُ
فإنْ تَكُنْ عَبِثَتْ أَيْدِي ٱلزَّمَانِ بِنَا وَمَسَّنَا مِن تَمَادِي بُؤْسِهِ ضَرَرُ
فَفِي ٱلسَّمَاءِ نُجُومٌ لا عِدَادَ لَهَا وَلَيْسَ يُكْسَفُ إلاَّ ٱلشَّمْسُ وَٱلقَمَرُ

★ ★ ★

لقطريّ بن الفجاءَة:

أَقُولُ لَها وَقَدْ طارَتْ شَعاعًا مِنَ ٱلأَبْطالِ وَيْحَكِ لا تُراعي
فإنَّكِ لَوْ سألْتِ بَقاءَ يَوْمٍ عَلَى ٱلأَجَلِ ٱلَّذِي لَكِ لَمْ تُطاعي
فَصَبْرًا فِي مَجَالِ ٱلْمَوْتِ صَبْرًا فَما نَيْلُ ٱلخُلُودِ بِمُسْتَطاعِ
وما لِلْمَرْءِ خَيْرٌ فِي حَياةٍ إذا ما عُدَّ مِن سَقَطِ ٱلمتَاعِ

★ ★ ★

يَعِيبُونَنِي أنْ جاءَ شِعْرِيَ جامعًا حِسانَ المعاني في ملاءٍ مِنَ الفَخْرِ
يَقُولونَ قَدْ وَلَّى الفَخَارُ وَأَهْلُهُ وأيّامُه أصْبَحْنَ في ذِمَّةِ الدَّهْرِ
وَمَا ذاكَ إلاّ أنَّ فِيهم جَهَالَةً بأنْفُسِهِم قَبْلَ الجَهَالَةِ بالشِّعْرِ
لَعَمْرُكَ إنَّ الفَخْرَ فينا غَرِيزَةٌ وَهَلْ يَكْتُمُ الرّيحانُ ما فيهِ مِنْ عِطْرِ؟!

محمّد كوسا

★ ★ ★

يَقولونَ فـي بَعْـضِ التـذَلُّـلِ عِـزَّةٌ وعـادَتُنـا أَنْ نُـدْرِكَ العِـزَّ بِـالعِـزِّ
أَبى اللهُ لـي والأَكـرمـونَ عَشيـرتـي مُقامي على دَحْضٍ، وَنَوْمي على وَخْزِ
منصور بن الزبرّقان

★ ★ ★

إنّـي لأَفْتَـحُ عَيْنـي حِيـنَ أَفْتَحُهـا علـى كَثيـرٍ، ولكِـنْ لا أَرَى أَحَـدا
دعبل الخزاعي

★ ★ ★

إذا المَلِـكُ الجَبّـارُ صَعَّـرَ خَـدَّهُ مَشَيْنَـا إليـه بـالسُّيُـوفِ نُعَـاتِبُـهْ
بشار بن برد

★ ★ ★

اللهُ يَعْلَـمُ أَنّنِـي مـا سـرَّنـي شَـيْءٌ كَطَـارِقَـةِ الضُيُـوفِ النُّـزَّلِ
ما زِلْتُ بـالتَّرْحِيـبِ حتّـى خِلْتُنِـي ضيفًـا لَـهُ والضَّيْـفَ ربَّ المنـزلِ
دعبل الخزاعي

★ ★ ★

لجعفر بن شمس الخلافة:
أَنا ٱلذَّهَـبُ ٱلإِبـرِيـزُ مـا لـيَ آفـةٌ سِوَى نَقْصِ تَمْييزِ ٱلمعانِدِ فِي نَقْدِي
وَرُبَّ جَهُـولٍ عـابَنـي بِمَحـاسِنـي وَيَقْبُحُ ضَوْءُ الشَّمْسِ في ٱلأَعْيُنِ الرُّمْدِ

★ ★ ★

نُجومُ سَماءٍ كُلّمـا غـابَ كَـوْكَـبٌ بَدا كَوْكَـبٌ تـأْوِي إِلَيْـهِ كَـواكِبُهْ

أضاءَتْ لَهُمْ أَحْسابُهُمْ ووُجُوهُهُمْ   دُجَى ٱللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ ٱلجَزْعَ ثاقِبُهْ
وما زَالَ مِنْهُمْ حَيْثُ كانُوا مُسَوَّدٌ   تَسِيرُ ٱلمَنَايا حَيْثُ سارَتْ كَتَائِبُهْ

★ ★ ★

لأبي فراس الحمداني:

إنّا إذا ٱشْتَدَّ ٱلزَّمَا   نُ وَنَابَ خَطْبٌ وٱدْلَهَمْ
أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِنَا   عُدَدَ الشَّجاعَةِ وٱلْكَرَمْ
لِلقَا ٱلْعِدَى بِيضُ ٱلسُّيُو   فِ وَلِلنَّدَى حُمْرُ ٱلنَّعَمْ
هٰذا وَهٰذا دَأْبُنا   يُودَى دَمٌ وَيُرَاقُ دَمْ

★ ★ ★

إنّا لَنَبْنِي عَلَى ما شَيَّدَتْهُ لَنا   آباؤُنا ٱلْغُرُّ من مَجْدٍ ومن كَرَمِ
لا يَرْفَعُ ٱلضَّيْفُ عَيْنًا فِي مَنَازِلِنا   إلاَّ إلَى ضاحِكٍ مِنَّا وَمُبْتَسِمِ
إنّي إذا كانَ قَوْمِي فِي ٱلوَرَى عَلَمًا   فإنَّنِي عَلَمٌ فِي ذٰلِكَ ٱلعَلَمِ

★ ★ ★

وقال بعضهم:

وَنَحْنُ أُناسٌ يَعْرِفُ النَّاسُ فَضْلَنا   بِأَلْسُنِنا زِينَتْ صُدُورُ ٱلمَحافِلِ
تُنِيرُ وُجُوهُ ٱلحَقِّ عِنْدَ جَوابِنا   إذا أَظْلَمَتْ يَوْمًا وُجُوهُ ٱلمَسائِلِ
صَمَتْنا فَلَمْ نَتْرُكْ مَقالًا لِصامِتٍ   وَقُلْنا فَلَمْ نَتْرُكْ مَقالًا لِقائِلِ

فهرس المحتويات

سلسلة «أروع ما قيل»

أروع ما قيل في الاجتماعيات
أروع ما قيل في الإخوانيات
أروع ما قيل في الحب والغزل
أروع ما قيل في الحكمة
أروع ما قيل في الخمرة ومجالسها
أروع ما قيل في الرثاء
أروع ما قيل في الزهد والتصوف
أروع ما قيل في الزواج
أروع ما قيل في الفخر والحماسة
أروع ما قيل في المديح
أروع ما قيل في المرأة
أروع ما قيل في الموت
أروع ما قيل في الهجاء
أروع ما قيل في الوجدانيات

أروع ما قيل في الوصف
أروع ما قيل في الوطنيات
أروع ما قيل من الأدعية
أروع ما قيل من أغان وأشعار للأطفال
أروع ما قيل من الأمثال
أروع ما قيل من الحكايات ١/ ٢
أروع ما قيل من الخطب
أروع ما قيل من الرباعيات
أروع ما «كُتب» من الرسائل
أروع ما قيل من الطرائف
أروع ما قيل من قصص العشاق ١/ ٢
أروع ما قيل من الموشحات
أروع ما قيل من النوادر
أروع ما قيل من الوصايا